الحياة المُثلى وكيف نحققها؟

منهج ذو أسس جديدة لمجتمع أفضل ثم لعالم أفضل

محمود حماد

الكتاب: الحياة المُثلى وكيف نحققها؟

الكاتب: محمود حماد

الطبعة: ٢٠١٨

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

حماد ، محمود
الحياة المُثلى وكيف نحققها؟ / محمود حماد
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١١٣ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٤ – ٧٥٠ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٤٥٦ / ٢٠١٨

الحياة المُثلى وكيف نحققها؟





مقدمة

ليست هذه فكرة للتسلية، يقرؤها المرء ثم يلقي بها جانبًا، وإنما هي موقف تجاه الحياة أو هي "فلسفة حياة" يأمل كاتبها أن تكون منهاجًا عامًّا ومحورًا جديدًا يلتف حوله.

ودعوة كهذه، لا يقف القارئ منها موقفا سلبياً، وإنما عليه أن يقرأها قراءة نقدية فيدعها تنساب في إدراكه ووجدانه بكل ما لها من طاقة ورغبة في الخير ثم يكوِّن رأيه تجاهها، أما أهل الفكر خاصة فعليهم واجب آخر فوق ذلك، وهو أن يترجموا رأيهم في عمل نقدي. سواء بالموافقة التامة أو بالقبول مع تحفظ، أو بالرفض أو بتصحيح بعض أخطائها وسداد أوجه النقص فيها.

فإذا كان الرأي الغالب معها فعلى المؤمنين بها أن يتبنوها ويحولوها إلى سلوك وعمل. وإن كان الرأي الغالب إلى نقضها أو رفضها فليكن عمل هؤلاء الرافضين أيضا إيجاد منهاج آخر خير منها، وإن كانت تحتاج إلى تصحيح بعض الأخطاء فليتعاون الجميع على هذا التصحيح لكي تكون نقطة انطلاق إلى حياة أكرم وأسعد.. هذا ما نأمله... ولا نظن أن الغاشية التي تغشانا من الحيرة والشك في مستقبل الإنسان تجعلنا نقف موقف المتردد إزاءها وإزاء الحياة بوجه عام.

إن الحياة تبعة ومسئولية – هكذا قدرت علينا – ولكنها تبعة تتفاوت خفة وثقلا بمقدار ما منحنا الله من الفهم والإدراك والشعور، وإنه لتطربني كلما ذكرت المسئولية الفادحة الملقاة علي كاهل الموهوبين من البشر في كل علم وفن تلك الآية الكريمة (وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون) وليس الثمن القليل هنا إلا الإخلاد إلى الدعة والراحة والإشفاق من تحمل الرأي المستنير أمام الجموع المعارضة التي جانبها الصواب.

لقد غصتُ في أعماق المجتمع بملاحظة دقيقة وعين مفتوحة، فتعرفت عيوبه وتبينت مشكلاته فوصفت الحل الملائم للمشكل، والعلاج الصالح للعيوب، ووضعت الأساس لحياة جديدة فاضلة نمارس فيها ممارسة عملية ما تشوقنا إليه في تاريخنا كله فلما أعيتنا الحيلة أطلقنا علي كلمة "مثاليات" أو مبادئ خيالية هذه دعواي. كل ما عليَّ أن أكون قادراً على أن أقيم البينة عليها كإنسان يشارك إخوته في الإنسانية آمالهم وآلامهم.

إن الإنسان لم يواجه محنة في تاريخه أشد مما يواجهها اليوم ولا يظن البعض أننا نرمي إلى خطر القنبلة الذرية والهيدروجينية وملحقاتهما، ولكننا تقصد ما هو أفدح من أسلحة الدمار والفتك التي باتت تهدده ألا وهي محنة العقيدة، محنة الروح من خطر الفلسفات المادية التي أصبحت تسود وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً.

لقد تجاهلت الفلسفة المادية كل القوى المعنوية، والقيم الإنسانية، وحصرت المشكلة كلها في لقمة العيش أو الجنس، ونسيت أو تناست أن عمل المعدة وشهوة الجنس تتساوى فيه مع الحيوان تمام المساواة، وأنهما بعض فروع المشكلة الكبرى كما أنهما ليسا أشد عراقة من المشكلات الإنسانية العليا ونفاذاً إلى الصميم.

ومما يضاعف خطرها أنها لا تقف وحدها في الميدان ولكن تساندها قوتان لا تقلل من أهميتهما هما: (الإيمان المغرور بالعلم) و(الاستغلال بنوعيه: المادي والمعنوي) وخطتنا لمواجهة هذا التيار الجمعي الجارف شيء واحد هو: (لمسئولية الفرد)، هذه هي بداية الطريق في معركتنا الإنسانية المقدسة. فليس الوعي الإنساني فرض كفاية، وإنما على كل فرد أن يحمل عبئه من الوجبات الإنسانية علي قدر جهده.

وتحضرني بهذه المناسبة قصة رواها الأستاذ مصطفى أمين من ذكرياته عن صدقي "باشا" السياسي وهي: أنه ثار مع زملائه طلبة المدارس الثانوية لما ألغى صدقي دستور ١٩٢٣ فاستدعاه السياسي المحنك إلى مكتبه وسأله: "هل قرأت دستور ١٩٢٣ و١٩٣٠ وقارنت بينهما واعتقدت أن الأول هو الأصلح؟"، فأجابه: "لقد قرأه النحاس باشا زعيم الأمة وأبدى رأيه وهذا يكفي". فعقب السياسي العظيم قائلا: "إذاً فاذهب منذ الآن إلى بيتك ولا تكمل تعليمك لأن النحاس باشا زعيم الأمة يحمل الليسانس وهذا يكفي".

لسنا ندري على التحقيق الغاية التي قيلت من أجلها هذه العبارة، لكن الذي أؤكده أنها أصابت كبد الحقيقة في رأينا، وهي تعبر عن وجهة نظرنا تماماً فيما نحن بصدده.

فخطر العبارة الآلية بعد ما يسرت للفرد أموره المادية، وجعلته يحصل علي حاجاته المعيشية من أسهل الطرق وشغلته بتنوع ميادينها علي حاجاته المعيشية من أسهل الطرق، حببت إليه الكسل في كل شيء والسطحية حتى فيما يتعلق بواجباته الإنسانية العليا في ميادين الروح والأخلاق والأفكار. فاضمحلت عنده قوة الإدراك السليم والنظرة المستقلة. وأصبح يردد كالببغاء كلمات ماركس وسارتر أو الغزالي وابن رشد وأضرابهم من المشاهير دون أن يكلف نفسه مشقة البحث الجدي في المراجعة والمقارنة وإعمال الفكر في اختيار الأفضل والأصلح، واستخلاص الآراء الخاصة بما يستنتجه من اطلاعاته بشعوره وإدراكه. ولذلك فنحن على قصد واع حينما خطونا الخطوة الأولى في معركتنا دفاعاً عن الإنسان. أن أهبنا بقواه المعنوية أن تهب لتؤدي دورها المفروض في هذا الصراع.. ونحن نقول معركة؛ لأننا نعلم أن استبداد الفكرة أشد صلابة في الدفاع عن كيانه من استبداد الفرد أو المجتمع، وبعضنا اليوم هنا وفي العالم أجمع استبدت بهم بعض أفكار معينة، وخدرت أصحابها فاستناموا لها وسيطرت عليهم بحيث أصبح مجرد مناقشاتنا لها – وليس محاولة تفنيدها أو استبعادها – يحتاج إلى كل ما تتطلبه جهود المعارك من حول واستعداد.

وليس هذا كل ما تتطلبه جهود هذه الأفكار أو الرد عليها، لأن هذه المبادئ التي دعت بعشرات السنين من الزمن، ومئات المجلدات من الكتب لا يتسع لنا المجال لمناقشتها في هذا الحيز المحدود.

وكل ما علينا الآن أن نعرض فكرتنا في صورة سهلة ميسرة لتأخذ مكانها بجانب الأفكار الأخرى، ثم نقف بجانبها للدفاع عنها حينما توجه لها سهام النقد ممن يحب أن يتصدى لها من المعارضين.

وكاتب هذه الرسالة لا يسعده حظه أن يجمع الكل على استحسانها أو تقديرها والثناء عليها ثم ينتهي الأمر عند هذا الحد، وإنما قيمتها عنده بمقدار ما توجه من طاقة وما تدفع إلى عمل وما تحقق من نتائج إيجابية في محيط الواقع الملموس.

محمود حماد – سمالوط

هل هناك حياة أفضل؟

منذ تفتح وعيي على هذه الحياة وأنا أشعر بعدم التجاوب بيني وبين المجتمع الذي أعيش فيه، ورغم التقدم الملموس في جميع شئوننا المادية والعلمية والثقافية إلا أنني أحس أن هناك شيئاً ينقصنا.. وطالما أعملت فكري في البحث وراء هذا الشيء الناقص فاهتديت إلى أنه "فلسفة حياة" أو مثل أعلى ينتظم نشاطنا وجهودنا فلا تتضارب ولا يناقض بعضها بعضاً.

لقد كنت منذ نشأتي أتساءل "ألا يمكن أن نقيم مجتمعاً على المحبة؟".. كان هذا السؤال يبدو غريبا لنفسي شديد الغرابة، وأنا أبصر المجتمع حولي يتنافس ويتطاحن في حقد وضراوة بلا هدف ولا غاية.. جبل حائر فقد المثل الأعلى والهدف الصالح والغذاء الروحي والقدوة الحسنة والفكرة السليمة التي يمكن أن يجتمع عندها الشمل وتأتلف الكلمة.

ولم أيأس، وشجعني علة ذلك ما علمته من اطلاعاتي على تاريخ النهضات وتاريخ المصلحين، وأن المصلح لا يظهر إلا كرد فعل للمجتمع المنحدر الذي يوجد فيه ولتصحيح الأوضاع المعكوسة وخلق القيم المعنوية الجديدة التي تصهر الروح وتنير الضمير وتحلق بالنفس الإنسانية فوق أغراضها الوضيعة وغرائزها الدنيا،

وأن يبث في الأفئدة روح التطلع إلى أعلى في كل مجال من مجالات الحياة.

وانزويت وحدي أدرس وأفكر وأتأمل وأراقب ما يحيط بي، وبين الحين والحين أراجع موقفي وأهم بالتراجع فأجد حافزاً خفياً يدفعني أن أسير لنهاية الطريق..

وبعد الهزات العنيفة من اليأس والأمل والمفارقات الطريفة من الإقدام والتردد والصراع الأليم بين الواقع المر والحلم الذي أعيش فيه، تكشف لي الهدف الذي يمكن أن نلتف حوله، وأقصر الطرق إلى بلوغه، وحينما وجدت من نفسي العزم الصادق على أن أتصدى لهذا العبء الجليل كنت أقدر مدى الجهد الشاق والكد المضني الذي سوف أتعرض له لأن الجهد يجب أن ينصب على هدفين رئيسيين: أولا: تشخيص الداء، ثانيا: العلاج الصحيح.

فالذي لاحظته أن كثيرا من المخلصين حينما يرون المجتمع الذي هم فيه ينحدر، ويحاولون إنقاذه يختلط عليهم الأمر في فهم مشكلاته فهماً صحيحاً فيخطئون في تشخيص الداء، ومن ثم يضعون حلولاً غير عملية لمشكلات وهمية لم تقم على أسس من الدراسة الواعية والفحص الصادق العميق.

وتكون النتيجة أن تذهب جهودهم سدى ويستسلمون لليأس بعد أن يبلوا البلاء الصادق في كدهم وجهدهم، وينفقون العوام الطوال في

الجهاد والكفاح؛ فيخيل إليهم أن إصلاح الحال من المحال ويفلسفون الوقع المزري الذي يعيشون فيه بأن الدنيا هكذا خلقت من قديم قائمة على المتناقضات وعلى الخير والشر، ولا جديد تحت الشمس، وأن التاريخ مملوء بالمصلحين والضحايا منذ الأزل فما انتفى الشر ولا صلُحَ الحال.

أما أن الدنيا قائمة على المتناقضات وأن الشر عنصر أصيل فيها؛ فهذا ما لا شك فيه، ومما لا شك فيه أيضا أن البشرية قد قطعت أشواطاً عديدة في مضمار الرقي والتقدم، وتكونت على مدى التاريخ مدنيات كانت كل واحدة أرفع من سابقتها وأوفى لعناصر الخير والسعادة للإنسان.

إن جهود المصلحين لم تذهب عبثاً، وإنما أفاءت على الإنسان جسداً وفكراً وروحاً ما لا يحصى من الخيرات.

غاية الأمر أن الإنسان – وهذا من حسن حظه – طموح أبداً لا يكاد يعتلي درجة من درجات الرقي حتى يتطلع إلى أخرى، وتتلخص سعادته ورقيه في هذا التطلع والعمل له، وما دام في الإنسان نفس يتردد فلن يهدأ له بال ولن يستقر على قرار، ولن يكتفي بجهد السابقين فيما قدموه له، بل عليه أن يأخذ دوره مثلهم، وأن يجعل حياته عامرة بالجهاد والنزوع.

هذا، وكل مدنية جديدة – لأنها قامت على دعوة جديدة ينادي بها الملهمون ويبشرون بها مستقبلا – يصيبون في شيء ويخطئون الحساب في شيء آخر، ولأنهم يسبقون زمانهم لا يستطيعون أن يحددوا المستقبل الاجتماعي بطريقة رياضية لا تحتمل الخطأ، وإنما يقدرون تقديرا فيخطئون في بعض النتائج.

وتختلف طريقة التناول للفكرة الجديدة من فرد إلى فرد، ومن جماعة إلى أخرى، فيساء تأويل معظمها وقد تؤدي أيضاً إلى عكسها وغالباً ما تتحول الدعوات الجديدة إلى نفس الأفكار السابقة وتتلون بها وتسري كما هي فتكون كخمر قديمة في زق جديد.

لهذه الأسباب كان على كل جيل أن يقوم بدوره في تصحيح أخطاء مجتمعه، وفي السمو به مادة وروحاً إلى اعلى، ومفرق الطرق بين مصلح ومصلح لا في مقدار الجهد ولا الحماسة للفكرة، وإنما في تشخيص الداء، ووضع يده على المشكلات الحقيقية التي تعوق طريق مجتمعه عن الرقي والنهوض.

إذن فالخطة الأولى للمصلح الحق أن ينعم النظر ويطيل الروية في فهم مشكلات مجتمعه، ويحددها تحديداً قاطعاً، ثم يكون من عمق البصيرة بحيث يرد المشكلات البارزة إلى عللها الخفية فلا يخطئ الربط بين الظاهر والباطن، وبين ما هو مخبوء وما هو ماثل للعيان.

هذه هي الخطوة الأولى، وتبقى الخطوة الثانية، وهي أشد عمقا من الأولى؛ فقد يتفق أكثر من واحد على تشخيص الداء ويختلفون في تحديد العلاج.

والذي نلاحظه اليوم مع تعدد المذاهب المعاصرة أنها ترجع إلى مذهبين جامعين للمذهب الجماعي والمذهب الفردي.

ونحن نرى أن من بين أتباع المدرستين من وُفِق توفيقًا لا شك فيه في الكشف عن العلل الدفينة، وإنما لم نر بعد من وفق مثل هذا التوفيق في العلاج الصحيح مع أن كليهما يشتعلان غيرة صادقة على خدمة الإنسان.

فالذين يبدأون الإصلاح من المجتمع يذهبون في تطرفهم في تقديس المجتمع والمساواة إلى حد فناء الفرد في المجتمع بلا فهم؛ فيعودون بنا إلى مجتمع القبيلة في أحط صورها، وهي نكسة نلمسها الآن في كثير من البلدان.. والذين يبدأون الإصلاح من الفرد يذهبون في تطرفهم في تقديس الفرد والحرية إلى حد الفوضى والشطط بها على حساب المجموع.

وبين هذين الاتجاهين المتقابلين يقف الإنسان حائرا مبلبل الرأي والخاطر يتساءل أين الاتجاه الصحيح؟

ونعود الآن إلى سؤالنا الأول: (هل هناك حياة أفضل؟).. وإذا لم تكن هناك حياة أفضل فهل حياتنا هذه جديرة بأن نحياها؟.. لقد قال الشاعر قديما ولا يزال قوله صادقاً حتى الآن:

أين من لم يشك منا دهره   ليت شعري هذه الدنيا لمن؟

نعم لمن هذه الدنيا إذا كان كلنا يشكو؟ هل يدعي أحد أنه يعيش في دنياه كما ينبغي، وأن يحقق الوسائل التي تكفل له ذلك؟ أم ستظل أبد الدهر عاجزاً عن تحقيق هذه الوسائل، وكل ما في الحياة مع متع ومسرات خداع وسراب.

الحق أننا غفلنا عن السعادة التي نعشقها كما تدور في خيالنا لأننا غفلنا عن الوسيلة الصحيحة.. إن بيننا وبين السعادة الممكنة حاجزاً شفافاً نراها منه ولا نتناولها. فهل نستطيع أن نصل إلى المفتاح السحري لهذا الباب لنعب من هذه الحياة المترعة بالهناء على قدر ما نطيق فلم يمنحنا الله الحياة لنعطيها ظهرنا ونعيشها ونحن نتحسر في ضيق الحرمان.. إن الله أوسع رحمة وأشمل عدلا من أن تكون هذه الحياة مجرد معاناة وحرمان.

وقبل أن تبدأ في وضع الخطة وفي تعبيد الطريق الذي علينا أن نسلكه يحسن بنا أولا أن نلقي نظرة دراسة فاحصة على المعوقات التي وقفت في طريقنا فانحرفنا عن الجادة ولعل أول هذه الأسباب وأقواها، أننا لم نجد الآلة التي توصلنا إلى أهدافنا إعداداً صحيحاً وما هذه الآلة إلا نفوسنا. فلم ننح عنها أثقالها التي ناءت بها آلاف السنين من الحقد

والكراهية والغيرة وظننا أنها تستطيع – وعليها كل هذه الأوزار – أن تخطو في هذه الحياة الفسيحة التي يلزمنا لدخولها أن نكون خفافاً متعاونين.

ثانيًا: كانت معظم النهضات السابقة رد فعل لمظالم واقعة، وهذا طبيعي، ولكنها لم تكد تقوم وفي نيتها دفع الظلم وحده حتى تحل مكان القوة المنسحبة كقوة طاغية مستبدة، فتكون أشبه بعملية انتقام منها بثورة وإصلاح.

ثالثًا: كان بعض دعاة الأفكار السابقة خياليين حالمين – وهذا لازم أيضا – ولكنهم لم يكونوا دارسين دراسة تامة واقع حياتهم المحيطة بهم وطريقة تناولهم لفكرتهم بالصورة التي يمكن أن تجد قبولا لدى مستمعيها، وأن يتطوروا بها شيئاً فشيئاً حتى تصل إلى النتيجة المرجوة.

رابعًا: كانت الدعوات السابقة انفرادية مفككة فلم تكن تجيد الربط بين القيم العليا وجمعها في خيط واحد لتنتظم حياتنا من جميع نواحيها.

خامسًا: يبدو أن البشرية على وجه الإجمال لم تكن مستعدة لقبول هذه الفكرة كما هي الآن؛ فقد أصبحت بعد التجارب المريرة التي خاضها في تاريخها الطويل، وبعد الخطر الماثل أمامها في كل لحظة.. أصبحت مهيأة لحمل هذه الرسالة الحقيقية لتقوم بشعائرها عن ولاء وإخلاص.

هذه هي المعوقات الكبرى التي اعترضت طريق الإنسان ووقفت حائلا بينه وبين حياته. والحق إني لأعجب الآن بعد وصولي إلى هذا المستوى من الفهم للحياة كيف ارتضى الإنسان حياته السابقة، وكيف صبر عليها ولم لم يهزأ بها ويطوحها بين قدميه؟

أهو يستحق الإعجاب على احتماله كل هذا العمر الطويل؟.. أم نعتبرها بلادة حس وجمود إدراك؟

إن – على مدى التاريخ –كثيراً من الذين أوتوا الإدراك السليم والإحساس المرهف عجزوا عن تكييف أنفسهم، وفق الحياة التافهة الحقيرة التي عاشوها فغادروها غير آسفين، وإني لأذكر والحسرة تملأ نفسي — آخر الضحايا هنا في القاهرة منذ أكثر من عشرة سنوات تقريباً، طالبا جامعيا أرسل خطاباً إلى صديقه يخبره بهذا المضمون قبل أن ينتحر وكان آخر كلماته. تلك العبارة الخالدة التي هزتني هزاً عنيفاً ومست قلبي بعمق لم يسبق له مثيل (أريد قيماً إنسانية) صرخ هذه الصرخة وبعدها ودع الحياة.

ولقد راودتني هذه الفكرة مرات ومرات، وظلت تلح علي طول عمري أن أقتدي بهذا الزميل الشهيد أن أصرخ هذه الصرخة وأودع هذه الكأس المريرة التي لم نجن منها إلا الصبر والحنظل إلا أن شيئاً غامضاً في نفسي كان يهتف بي: "إنَّ الفجر على الأبواب"

وكم بيننا اليوم من شهداء أحياء كل يوم وكل ساعة تمر من حياتهم تعتبر استشهاداً أو انتحاراً.. كم بيننا الآن من هؤلاء المظلومين الحيارى الذين يحسون الحياة المترعة من حولهم ولا يدركون منها منالاً.

فلهؤلاء الحيارى، وللبشرية الجديدة الصاعدة والمقبلة على التوالي إلى هذا الرحاب الفسيح الذي جعلناه بجهلنا وعجزنا أضيق من سم الخياط أقدم هذه الدراسة الجادة، وأسأل الله التوفيق.

المنهج العلمي

المبدأ الأول:

الجزاء الذاتي

هل تذكر مرة وأنت تسير في الطريق العام في ساعة متأخرة من الليل أن وجدت وسط الطريق حجراً ملقى، أو وقع نظرك على قشرة موز مثلا فانحنيت عليها وألقيتها بها بعيداً عن أقدام السابلة...؟

هل تذكر حادثاً كهذا أو شيئاً مماثلاً له؟.. ثم هل شعرت بعد ذلك بكثير من الراحة النفسية والمتعة أنك نحيت الأذى عن طريق مجهول لا تعرفه، كلما دار في خيالك أن هذا القادم المجهول سيصاب برضة من أثر اصطدامه بالحجر، أو بكسر في احد أضلاع جسمه إذا انزلقت قدمه على قشرة الموز فسقط على الأرض؟

في هذه اللحظة لم ترغمك قوة قانونية على هذا العمل، ولم يصفق لك جمع من المشاهدين، ولم يتقدم إليك بالشكر أحد على صنيعك؛ لأنه مجهول منك وأنت مجهول منه، ولم يكن هذا المجهول أحد أصدقائك أو ذوي قرباك.. وهذه هي الدوافع كلها التي تجعل الفرد يقوم بعمل طيب.. وإنما فعلت ما فعلت بدافع نفسي داخلي محض. كان أقوى عندك من التكليف والأمر. وأحلى لديك من كل جزاء وشكر.

بماذا نسمي هذا الدافع النبيل المطلق من أي إلزام أو جزاء؟ نستطيع أن نطلق عليه من الأسماء ما نشاء ولكنا نريد هنا أن نتفق على اسمه الحقيقي وعلى مدلوله الأوحد الذي ينطبق عليه تمام الانطباق وهو "الجزء الذاتي".

الجزاء الذاتي إذن: هو أن نفعل ما نعتقد أنه الخير بدافع داخلي محض أشبه بالاستجابة الطبيعية التلقائية منه بالعمل المحدد المرسوم، أن تفعل الخير جهد ما تستطيع لأنه خير – لا لأنك نثاب عليه أو لأنك ستتلقى الشكر من أحد. أو أن ما تعمله له أحد أقربائك أو أصدقائك أو أي شخص معروف لديك يمكن أن يرد الجميل بالجميل.

إننا نود أن نرتفع بمثل هذا المثل البسيط العادي المكرر إلى أسمى من ذلك وأكثر تعقيداً، حتى نجعله ينتظم كل معاملاتنا وعلاقاتنا وأعمالنا، بل كل حياتنا من جميع نواحيها.

فلنتدبر جيداً، ولنفتح عيوننا وبصائرنا عن آخرها لنعلم أن كل ما نعانيه من خلط واضطراب وتخبط في أمورنا وفي معاناتنا للحياة الكريهة التي نعيشها إنما هو لسبب واحد: هو أننا غفلنا في تاريخنا كله عن هذا القانون العظيم الذي يتلخص في كلمتين: "الجزاء الذاتي".

ونرجو ألا يدور بخيال أحد أننا حينما نصور كل ما نحن فيه من فوضى وتخبط، أننا نقصد المبالغة أو عدم الدقة التامة في التعبير، وإنما

نراعي الأمانة التامة في وضع الألفاظ في مواضعها الطبيعية ومطابقة لمدلولها الصحيح.

وندلل على هذا بمثل شائع مكرر يحدث بيننا كل يوم، ويلقي الضوء الكاشف على حقيقة وعينا لهذا الموضوع من جميع نواحيه ويغني عن أكثر من مثال:

زيد وخالد قريبان أو صديقان حميمان، اقترض أولهما من الثاني مبلغ مائة جنيها، ونظراً لصلة الصداقة بينهما أو القرابة رفض خالد أن يأخذ من زيد إيصالاً بالمبلغ أو أي إشهاد يثبت علية الاقتراض، وتمر الأيام ويطلب خالد من صديقه زيد أن يرد مبلغه فيماطل، ثم يراوغ، ثم يثور آخر الأمر قاذفاً في وجهه بهذه الكلمة الشهيرة التي كثيراً ما تقال في مثل هذه المواقف "إن كان عندك ورقة روح اشتكيني" ويصاب خالد بصدمة وخيبة أمل في الصداقة والأخوة والحياة؛ فيلجأ الي القانون الذي وضع لينصف الناس من الناس، ويقتص للمظلوم من الظالم، ويطلب القاضي من المدعي أن يبرز ما عنده من البينات؛ فيثور الرجل مزمجراً شارحاً للقاضي ظروف الاقتراض، وأن ما منعه من طلب إيصال كتابي إنما كان بسبب الصداقة القائمة أو القرابة الوطيدة.. ويقتنع القاضي بصحة دعواه وحرارة صدقة.. وبين يديه القانون الذي وضع لينصف الناس من الناس ويقتص للمظلوم من الظالم. ولكنه – وفي يده كل هذه السلطة وفي يقينه كل هذا الاقتناع – يجد نفسه عاجزاً أمام هذا الفرد الأعزل أن يرد الحق إلى نصابه.

ذلك لأننا غفلنا عن القانون الطبيعي النابع من الضمير وأقمنا الميزان لقانون مصنوع علقنا عليه كل آمالنا في إقرار الحق والإنصاف والجزاء، واستعضنا به عن القانون الأصيل.

إذن فالقانون الموضوع لم ينصفنا في حالتنا هذه، أو بالأحرى عجز عن إنصافنا وفي حوزته كل ما كتب الشراح وجهابذة الفقه على مر العصور، وكل ما تملك الدولة من أدوات التنفيذ والإرغام.

عندئذ يخطو صاحب الحق خطوته الثانية فيلجأ إلى الرأي العام ممثلا في معارفه وجيرانه وبعرض شكواه مندداً بهذا الآخر الذي خان ثقته وضيع ما بينهما من أواصر الصداقة أو القرابة في سبيل المال منتظراً أن يجد منهم من يسانده وينعي معه الخلق الفاضل، ولكنه سيجد عكس ما كان يتوقع، سيجد من يسخر منه ومن يهزأ به وبغفلته البالغة، وعدم فهمه لواقع مجتمعه وكيف أنه لم يدرك الأمور على حقيقتها كما يجب أن تُدرك، فلا يثق بصديق أو قريب، ولا ينخدع بالألفاظ المعسولة التي يطلقها هذا الشخص أو ذاك تحت اسم الصداقة أو الأخوة أو الخلق أو الرجولة وما إليها، وأنه يعيش في الأحلام التي لا يمكن أن تتحقق، والتي فات أوانها من زمن بعيد.

ثم يذهبون إلى الآخر الذي انحط بشرفه إلى هذا المستوى الدنيء من أجل المال، فلا يلومونه على فعلته ولا ينكرون عليه ذلك المسلك الوضيع، وإنما سيجد التشجيع والاستحسان والثناء على

شطارته وبراعته في اقتناص المبلغ، ويتبادلون الضحكات العالية على هذا التلفيق.

ونعود الآن إلى خالد.. إلى الرجل الشهم النبيل الذي أنقذ زيداً من ورطته أو خيِّل إليه أنه كذلك، سنجده يكف يد المعونة والنجدة عن أي إنسان آخر مهما تأكد من صدق وعده، وشدة حاجته حتى لو كتب له ألف ورقة بمبلغه لأن المسألة في حسابه ليست مسألة ورقة تضمن له حقه، وإنما مسألة شعور بالتعاون والترابط بينه وبين الآخرين.

وبذلك تنبتُّ ما بين الناس من صلات، وتنقطع ما بينهم من أواصر، ويعيش الكل منطوياً على نفسه منعزلا عن الجماعة لا يشارك أحد أحداً في وجدان أو شعور كما هو واقع بيننا اليوم.. وبهذا تفقد الجماعة روح كيانها ومقومات وجودها، ويتجلى هذا عندما ينشد محتاج صادق الحاجة العون فلا يجده في وقته، فلا يكون أمامه إلا أحد أمرين. إما أن يهلك أو يسلب ما ليس له عنوة واغتصاباً.. فتكون الجريمة ويكون الصدام والتخبط الأعمى الذي ليس له مدى ولا نهاية؛ فتتقوض أركان المجتمع ويميل بنيانه ويترتب على الشيء البسيط الصغير، أو الذي نظنه بسيطاً صغيراً من الشرور والآلام، ما لا يدركه الخيال أو يدور في الحسبان.

ونعود إلى قصتنا مرة أخرى لتصل بها إلى النهاية، فنجد أن خالداً عاد ثانية إلى صديقه السابق وقد عزَّ عليه أن يخسر الصديق والمال معاً،

وليستنقد منه بعض ما أخذه، ولم يستطع أن يرده القانون أو القيم الاجتماعية السائدة.. يلجأ أخيراً إلى ضميره ليرد له ما يشاء من حقه، وما يخرج من ذمته، وقد يتفضل عليه زيد بما يشاء فيعطيه ربع المبلغ أو خمسه أو يرفض أن يعطيه شيئاً.. هذا إن لم يرده رداً غير كريم.

هذا هو الوضع المعكوس، ولذلك فنحن لا نؤمن أننا حينما ندعو إلى مبدأ الجزاء الذاتي لا نطلب مستحيلا، ولا ننشد خيالاً ولا نتعلق بحبال الأمل الواهية، وإنما نريد أن نصحح الوضع ونعيد الأمور إلى حالتها الطبيعية الحقيقية كما ينبغي أن تكون.

إن خطيئتنا الكبرى على مدى التاريخ أننا ألقينا بالجزاء من الداخل إلى الخارج. فتعلق الإنسان به سواء أكان جزاءً دنيوياً أم أخروياً، غافلين عن الجزاء الحقيقي الأسمى الذي ينبع من النفس ذاتها، والذي يعلو على كل جزاء.. إننا في حاجة أن نوليه الجزء الأكبر من عنايتنا والنصيب الأوفر في ثقافتنا وتربيتنا حتى ينال منا ما هو جدير به من الاهتمام الكامل، والتقدير الصحيح وبعدها سوف نفخر أننا نعيش في مجتمع بشري متحضر لا كهذه الذرات المتناثرة التي تتخبط في عماء..

* * *

ونحن لا نستطيع أن ندلل على صدق ما نقول عن الوضع الطبيعي بأكثر من القصة ذاتها لنرى لو قلبنا الوضع كما ينبغي أن يكون كيف يكون الحال؟

والوضع الصحيح الذي نتخيله أو نأمله هو أن نبدأ حيث انتهت القصة على الوضع السابق، فنرى المجتمع وقد راجت فيه كلمة "الجزاء الذاتي" – أو على قطاع كبير منه وأصبح لها مدلولها الصحيح، ووجدت الوعي النامي الذي يهضمها ويتمثلها؛ ستكون النتيجة حينئذ أنه عندما يقرض خالد زيداً مبلغ المائة جنيه لا يتجه إلى القانون أولا ثم إلى قيم المجتمع المنحلة ثانياً ثم إلى ضمير الفرد ذاته وإلى شعوره بأن رد المبلغ هو عمل طيب في ذاته، إنه وفاء بالوعد وامتنان للصديق وبر بالصداقة وصيانة للكلمة الملفوظة والتي هي أعمق أثراً من كل إيصال مكتوب. ومن يشعر بمتعة الجزاء الذاتي سيجد في القيام بهذه الالتزامات وحدها أصدق الجزاء وأغلى من كل ما على الأرض من كنوز.

فإن وجد بعد ذلك الشخص المختل الطبيعة الضيق النفس المظلم الإحساس، العاجز عن أن يسمو إلى هذا المستوى العادي فسيجد خالد الإنصاف من المجتمع الناضج المتحضر الذي يعرف قيمة الكلمة ويقدس الشرف ويعتز بالرجولة ويتطلع إلى كل خلق كريم فلا يسمح لفرد من أفراده أن يعبث بكل هذه القيم التي يحرص عليها المجتمع أعظم الحرص ويعتبرها ثروته الحقيقية.. لا يسمح مجتمع هذا حاله لفرد طائش أن يهدم كل هذه القيم في سبيل نزوة فردية أو رغبة دنيئة فلا يجد أمام إصرار الجماعة على مثلها، بل على حياتها إلا أن يسلم بحق صاحبه راضياً أو كارها، فإن وجد بعد ذلك الشخص الشاذ غير الطبيعي الذي لا يجد متعة في الجزاء الذاتي وفي الوفاء بالتزاماته لمجرد الوفاء، ولا يحترم ما تواضع المجتمع الفاضل

عليه من قيم، فهناك أخيرا يجب تقديمه إلى القانون لينتصف منه لا على أنه مجرم بل لأنه جاهل أو عاجز أو مريض فيعمل بوسائل علمية على تقويمه وإرجاع نفسه الشاردة إلى حظيرة المجتمع الحر الكريم.

إننا لا نريد ان نسرف في ضرب الأمثال، وفي إقامة الشواهد، وإنما همنا كله الآن أن نضع القاعدة وأن نطبق عليها مثالا واحداً يشهد بصحتها وصدقها، تاركين المجال بعد ذلك لمن يشاء من القياس والاستطراد.

وحينما نقول إن هذه الجملة الصغيرة المؤلفة من كلمتين اثنتين ستحدث من الأثر ما لم تحدثه أي ثورة سابقة لا نكون مغالين أو حالمين، فقد تبلورت الثورة الفرنسية بكل جلالها وضخامتها في كلمتين: حرية، ومساواة.. والإسلام وقد أسدى للبشرية ما أسدى لخص دعوته في جملة واحدة "لا إله إلا الله" ومن قبله المسيحية جعلت شعارها "الله محبة".

ولا يظن أحد أن المناداة بتطبيق هذا المبدأ جاء قبل أوانه، وقبل الاستعداد التام له؛ فنحن نعتقد أنها جاءت في أوانها إن لم تكن بعد أوانها؛ فهذا التخبط في كل شأن من شئوننا، وهذه الفوضى الضاربة أطنابها في كل ناحية، والانحلال الذريع في كل مكان.. هذا كله لا علاج له إلا شيء واحد هو الإسراع في تطبيق هذا المبدأ الجليل.

ولا يفهم من هذا أن هذا المبدأ غير معمول به حتى الآن، فما أعمال الأنبياء والمصلحين والمخلصين من أبناء البشر منذ فجر التاريخ حتى اليوم إلا ترجمة دقيقة له، حتى أنه روي عن خالد ابن الوليد أنه قال "لو لم أؤجر على ترك الكذب لتركته أنفة".

كما أن عمل الغرائز والعواطف والصراع والكبت والعقد لم يكن موجوداً قبل فرويد، وإنما كل عبقريته تتلخص في أنه اقتنص المعنى الخفي المبهم الذي نحسه ولا نلمسه ووضع له الصورة اللفظية التي تحدد أبعاده وتجسده، ليصير معرفة عامة من بعده ويضاف إلى كشوف الإنسان في مصطلحات العلوم.

ونحب أن نشير إلى الفروق الدقيقة التي تميز الجزاء الذاتي من الجزاء الديني كما هو محدود في الأذهان، فقد يقول قائل: إن الجزاء الذاتي ما هو إلا الجزاء الديني المرتكز على الضمير، وحتى يتضح الفرق نجيب: إننا نعتبر الجزاء الديني جزاءً خارجياً، كالجزاء القانوني سواء بسواء بمعنى أن الفرد الذي يؤمن بالله وبالجنة والنار ويفعل الخير نتيجة هذا الإيمان، لا يستشعر متعة الجزاء الذاتي فلو ضعف هذا الإيمان أو انتفى لأي سبب من الأسباب فلن يعمل الخير الواجب الذي كان يصنعه من قبل كالرجل الذي لا يخشى إلا القانون لو أمن بطشه لصنع ما تمليه عليه أهواؤه الضالة. وغاية الدين من أوامره ونواهيه ليس الحجر أو الوصاية، وإنما تهذيب النفس وتقريب الإنسان من فطرته التي فطره الله عليها، أي إلى مستوى الجزاء الذاتي.

أما فكرة الجزاء الذاتي فهي مبرأة من الرقابة القانونية والرقابة الدينية غايتها تحرير الضمير البشري من كل قيد وأن يحمل تبعة عمله، وأن الجزاء في نفس العمل إن خيراً فخير وإن شراً فشر.

هو الفرق بين نظرتين: نظرة تلزم الفرد بعمل الواجب لتغريه بالجزاء، ونظرة تلزمه بعمل الواجب لأنه مسئول. وهو مسئول لأنه جدير بشرف المسئولية، إذ لا تسقط إلا عن قاصر أو سفيه أو مجنون..

* * *

وبعد أن توصلت إلى هذا القانون واطمأنت نفسي إليه، ناقشت فيه كثيرا من أصدقائي أبدى بعضهم اعتراضات قد تجول في أذهان كثيرين ويحسن أن نرد على بعضها هنا.

فقد اعترض البعض أن هذه الفكرة مثالية أكثر مما يجب، وأنها تناقض الواقع الأناني وما جبل عليه الناس من الأثرة وحب النفس، وهذا الاعتراض أولى أن يكون تأييداً، لأنه إذا كان المجتمع على الصورة التي يذكرها فهذه الدعوة لازمة لإقامة التوازن فضلا عن أنها لو عملت وسادت لأصبح المجتمع علي الصورة التي نأملها.

على أن أعجب ما وجه إليها من اعتراض هو: (أن ما نجده اليوم من اضطراب الحال وإشاعة القلق وزلزلة أركان الأخلاق إنما هو الضريبة المفروضة للمدنية الآلية الجديدة التي يجب أن ندفعها عن طيب

خاطر). ومع ما في هذا القول من بطلان واضح إلا أنه من الانتشار بحيث يجعلنا نقف عنده لنفنده، ونبادر فنقول: إننا يجب أن نفهم أن الاهتمام الأول لكل مدنية أو تقدم إنما هو بمقدار ما تضفيه من السعادة على روح الإنسان نفسه بصرف النظر عن المظهر الخادع، ولا قيمة للمظهر إذا كان ذلك على حساب الإنسان نفسه.

ومن العجز المخزي أن نرى كل هذه الرزايا الكبار التي تغشانا ظلالها بل ظلماتها ضربة لازب وقدراً مسيطراً لا مفر لنا منه ولا مخلص من أشراكه؛ فالإنسان الذي حطم الذرة واخترق الفضاء العلي وغاص في أعماق المحيطات لا يسعده ذلك إذا لم يبدع النظام اللائق به في كل طور من أطوار حياته وأن يوجد القيم العليا التي يترسم خطاها في سيره فلا تضله ولا تشقيه.

إن الرضا بالواقع شيء، ومحاولة تحسينه والتطور به إلى أعلى شيء آخر، وما يظنه البعض من أن الحالة الأخلاقية التي نعيش عليها إنما هي الواقع الأمثل وهو أقصى جهد المدنية الحاضرة. وإنما يغفل عن قانون التطور والمحاولة الإنسانية الدائمة نحو الأكمل والأمثل، والنزوع إلى المستوى اللائق على قدر الإمكان. فلنيمم وجوهنا منذ الآن شطر هذا المبدأ السامي، ولنفتح له قلوبنا طواعية واختياراً، ولنعلم أن كل دقيقة تمر بنا بعد الآن ونحن بعيدون عن تطبيقه إنما هي ضياع أكيد من وجودنا وحياتنا هذا الوجود الزائف الذي نعيش في نطاقه.

(الجزاء الذاتي) ما أجمل هذه العبارة وما أرقها وأسماها خاصة حينما تسود بيننا قيمة عليا وحينما يحاول كل فرد أن يطبقها في حياته جهد ما يستطيع. إنه الأساس الوحيد المتين لكل ما ينبني عليه من القيم العليا في مجتمعنا المقبل السعيد بإذن الله.

بقيت كلمة أخيرة في مجال الاعتراض المقبول وهي: هب أننا آمنا بالجزاء الذاتي كقيمة عليا وعملنا علي تحقيقها فما هي المفاهيم الصادقة للفضيلة والرذيلة، وما هي المعاني المحددة للخير والشر حتى نحس بمتعة الجزاء الذاتي حينما نفعل الخير ونبتعد عن الشر: إن الفضائل يختلف مفهومها من مكان إلى مكان، ومن طبقة إلى أخرى حتى في الزمن الواحد فإلى أن يتحدد مفهوم القيم على معنى واحد لا سبيل إلى الشك فيه لا نستطيع أن نطبق هذا المبدأ السامي الجليل.

وأجيب: أولا: إننا نريد أن نقر المبدأ في ذاته من حيث هو مبدأ.

ثانيا: أن نبدأ بتطبيقه حيث القيم المفهومة الواضحة التي نتفق عليها الآن.

ثالثا: إن الأصول الأخلاقية الكبرى متفق عليها غالباً، ولا خلاف إلا على التفاصيل والفروع وهذه سيتكفل بها المبدأ الثاني من هذا البناء.

المبدأ الثاني:

الحق من طريق الإقناع

نشأة الحق:

نستطيع أن نتصور أن الحق نشأ في المجتمع الأول بسيطاً واضحاً كان كل هدفه الإخبار بالواقع، وبعد مرحلة تقدم أصبح مضمونه الاستفادة الواعية من التجارب الماضية والقياس عليها لأمور المستقبل من ثقافة وممارسة وغير ذلك. وانفرد به أناس ذوو ألمعية خاصة كل في ميدانه يتوفر عليه بجهده، ودراسته حتى يصل إلى الحل الصحيح أو ما يعتقده صادقاً أنه الحل الصحيح، ثم يبدأ يبشر بنظريته الجديدة داعياً لها جهد ما يستطيع.. وتقوم الآراء الأخرى من جانب أناس آخرين مفندة أو ناقدة أو مستحسنة أو هادمة للفكرة الجديدة، ولا يزال الأخذ والرد حتى يستقر الأمر على إثباتها أو نقضها أو تكملة أوجه النقص فيها إن كان ثمة حاجة إلى تكملة.

ثم تطورت نظم الاجتماع وتعقدت أساليب السياسة والحكم، واستغل ذوو الأغراض الملتوية هذا التعقيد فزيفوا فكرة الحق من أساسها وأعملوا جهدهم في تزييفها لمنفعة شخصية بحتة. للخداع والتمويه. أو بالقسر والإرغام إن كان في يدهم صولجان الحكم وأدوات التنفيذ.

فانطمست معالم الحقيقة وضل الناس السبيل إليها، وأصبحت كلمة شائهة مبهمة. لا مفهوم لها ولا مضمون، لأنها قامت على غير الأساس الوحيد الذي كان يجب أن تقوم عليه وهو "الجزاء الذاتي" عندئذ ساء ظن القارئ بالكاتب مهما يكن جاداً أو صادقاً، ومهما يبدو عليه من الإخلاص وإن بذل أقصى ما في طوقه لمصلحته.

ولا أدل على ذلك من أن أسرد هذه القصة كما حدثت بيني وبين صديق لي عمدة لإحدى القرى المجاورة: جاءني ذات يوم فرحاً ليروي لي حدثاً خطيراً وهو معتقد أنه أدى واجبه وأبرأ ذمته حين قام به.

قال: أنت تعرف الضريح المقام ببلدنا للشيخ فلان. قلت له نعم. قال: لقد هدمت هذا الضريح في الأسبوع الماضي بعد أن ضقت بزيارات الناس له وتمسحهم به. وتقديم القرابين باسمه مع شدة حاجاتهم إليها. وكان يؤلمني ما أراه هناك من تضرع وخشوع يجب ألا يكون إلا لله وحده جل وعلا، فأقدمت على هذا العمل رغم استنكارهم له. وإيمانهم أني بهذا أعرض نفسي لبطش الشيخ وانتقامه، وها قد مضت هذه المدة ولم يحدث لي شيء والحمد لله.

قلت: وهل امتنع الناس بعد ذلك عن الذهاب إلى هناك وتقديم القرابين؟.. أجاب وفي صوته رنة اسي واضحة: أبداً إنهم يذهبون إلى المكان المسوى بالتراب ويفعلون ما كانوا يفعلونه في الماضي ثم سكت ناظراً إلي ينتظر مني الجواب. وكان يعتقد أنني سأهنئه على خطوته الفذة

الجريئة، وأشاركه الاستياء من تصرف أهل بلدته. ولكني أجبته بالحقيقة التي صدمته وكانت غائبة عنه حتى ذلك الحين. قلت له: أولا: إن ما قمت به من هدم الضريح وتسويته بالأرض – وإن كان حقاً في ذاته – إلا أنه جهد ضائع لا قيمة له لأنه قائم على اقتناع فردي محض وإن تصرف أهل القرية بزيارتهم للمكان وتقديمهم القرابين إنما هو تصرف طبيعي لا ينتظر أن يحدث غيره.. فالناس يستجيبون لك بنسب متفاوتة إذا صادمت عقائدهم الموروثة بالمنطق والإقناع وقد لا يستجيبون. ولكنك حينما تصدم عقائدهم وفي يدك القوة لا المنطق فإنك من حيث لا تشعر تزيد من تمسكهم، وتولد في نفوسهم الإصرار على ما يعتقدون.

ثانيا: سبق لك أن مررت على هذا الضريح مرات ومرات فهل شعرت يوما إنك تستجيب لما يستجيبون من تضرع وخشوع أو تقديم للقرابين. والجواب: لا. لأن ما وصلت اليه بفهمك وثقافتك ورقي فكرك جعلك تعتقد عكس ما يعتقدون. إذن فالبناء مهدوم في نفسك وإن كان قائماً أمام ناظريك أما هؤلاء – ولهم العذر – فالبناء قائم في نفوسهم تحت تأثير العقيدة التي أملاها الجهل وإن كان مهدوماً في الواقع؛ فالحل الطبيعي أن تحاول نقل إقناعك من نفسك إلى نفوسهم عن طريق المنطق والتدبر والفهم السليم.

قال: أوه.. كم يلزمنا من الزمن لنصل إلى ما نريد عن طريق الإقناع.. إن هذا يحتاج إلى سنوات بل أجيال.

قلت: إننا نريد أولا: أن نتفق على الحل السليم المجدي، وبعد ذلك لا يهمنا الزمن ولا طول المسافة... أما اختصار الإجراءات إلى هذا الحد والوصول إلى الهدف من غير طريقه الطبيعي فسيقودنا إلى التخبط واحتمال النكسة أكثر مما يقودنا إلى الأمام.

لنفرض أنك اعتزلت هذا المنصب لسبب من الأسباب وتولاه أحد أقربائك أو منافسيك ولم يكن على قدر الثقافة والإقناع الذي أنت عليه فماذا تكون النتيجة؟.. سيعيد هذا الضريح كعهده الأول وسيكون الناس أكثر استجابة له. ولكنا لو تصورنا الوضع الآخر وهو أنك قمت بهدمه بعد إقناع فلن يعود هذا البناء أبداً مهما يتوالى على منصبك من أشخاص غارقين في الجهل والرجعية وحتى لو أعادوه فلن يجدوا استجابة له من الجمهور الواعي المقتنع بفساد الإجراء.

يا صديقي: إن العمل الواحد قد يكون فضيلة ورذيلة معاً إن كان الدافع إليه الرغبة فهو فضيلة وإن كان الدافع إليه القهر فهو رذيلة مهما تكن نسبته إلى الفضيلة في قاموس الأخلاق..

* * *

هذا من ناحية الأمر الملزم عن طريق سلطة الحاكم مع افتراض أن هذا الحاكم صالح مخلص مبرأ من العيب ومن الغرض. أما إذا كان سيء الضمير وملتوي الغرض فإنه سيكون بمثابة الكارثة ولن تقف في

طريقه قوة إلا أن يتجمع سخط النفوس في ثورة عارمة تزلزل قواعد حكمه.

أما من ناحية الآداب والفنون التي تحاول الاتجاه بأساليبها إلى هدف معين، والقدرة على الدعوة له بفنون الخداع والتأثير التي تجيده. فيقول قائل عن رجال الآداب والفنون.

إنهم يستطيعون بما أوتوا من براعة التعبير وأساليب البيان، وما اكتسبوه من قدرة على صياغة الحجج أن يحسنوا القبيح ويقبحوا الحسن، وعلى قلب الأوضاع وإشاعة الفوضى وإفساد الأخلاق والدعوة إلى الهدم والتخريب، وسيكون تأثيرهم هنا أشد خطراً لأنه تأثير الاقتناع الذي تنادي به وتدعو إليه، أليس من حق الحاكم أن يقف في طريقهم وأن يصدهم عن غايتهم وأن يحطم وسائلهم الملتوية بقوة القانون وما يملك من أدوات التنفيذ؟.. أم يقف هنا موقف العاجز المتردد ويترك الأمور في حرية حتى تصل إلى الفوضى والخراب؟

وأجيب: أولا: إننا حينما ندعو أن يكون الحق من طريق الإقناع إنما نقيده بما ندعو إليه على الساس السابق، وهو الجزاء الذاتي لأن هذا المبدأ هو الأساس الوحيد لما يقام عليه بعد ذلك من القيم، والأديب الذي يستشعر الجزاء الذاتي لا يستغل فنه في سبيل نزوة فردية أو مصلحة شخصية أو طائفية، بل سيكون كل همه أن يبرز ما في طوقه من فكر وشعور في سبيل ما يعتقد أنه الخير للجميع.

ثانيا: نحن نؤمن أن الحق المطلق لا وجود له ولكنه نسبي ككل شيء في حياتنا وعقائدنا ولا يتجلى الحق كأوضح ما يكون إلا من خلال اصطراع الآراء وتضارب الحجج وتعدد وجهات النظر فلا يجوز لأي قوة أن تقف في طريق الرأي الحر ليأخذ حقة في الظهور والانتشار المقدر له تحت أي حجة وباسم أي دليل؛ فالوضع الذي نأمل أن يكون هو أن يؤدي صاحب الرأي كأي عمل طيب يود أن يسديه لمجتمعه فيبذل جهده في هضمه وإعداده وتنقيته وتنقيحه قدر ما يستطيع ثم يعرضه للناس في الصورة المناسبة ولا يهمه بعد ذلك قبله الناس أو رفضوه فهو يبذل جهده خالصاً في سبيل المجتمع ورقيه، ويشعر أن جزاءه في عمله وحده وفي إرضاء ضميره، وليس في تقدير الناس له بالرفض أو القبول. إن جزاءه الأكبر في كدحه للوصول إلى الحقيقة كما يراها من زاويته وفي الغيرة على أبناء جنسه التي صاحبته وهو يقوم بهذا العمل المحمود. وفي هذا وحده الضمان ألا يكون الأدب والفن مصدر عبث وهدم وتخريب.

إني أعتقد أن البشرية كانت تختصر نصف الطريق أو أكثر لو أنها سمحت لكل فكرة جريئة أن تظهر وتستقر وتؤدي ثمرتها المرجوة ودورها المأمول.

وتحت سوء الظن من الدولة أو المجتمع والقيام بخنق الحركات الجديدة ضاعت ثروات من الأفكار القيمة والآراء السديدة ما لو قيس معه الواقع المشهود أمامنا وما وصلنا إليه من تقدم ورقي لكان شيئاً غير ذي بال.

فالمناخ الصالح للفكرة هو التسامح المطلق مع كل رأي آخر ودرسه بحرية مطلقة وإفساح الطريق لكل فكرة جديدة مهما تكن مناهضة لآرائنا ومعتقداتنا وكل حجر على حرية الرأي لأي عذر وأي تبرير يجب أن نجعله دبر آذاننا وليكن الحكم الفيصل بين ما لكل فكرة وما عليها هو موقف الرأي العام منها بعد دراسها وتمحيصها وإعطائها فرصة الحياة والظهور.

فالنقاش الحر هو الذي يكشف زيف الفكرة أو صدقها ويوضح صحيحها وباطلها.. وقد تكون الفكرة ناقصة فيكملها غير صاحبها.. وقد تتجلي لنا أثناء النقاش الحر أفكار أخرى لا تخطر على بال صاحب الفكرة أو من يعارضه، ويكفي أن يشعر كل صاحب رأي أنه محل احترام مواطنية وأهلا لثقتهم ليضم في قلبة نار الإخلاص والكدح في تقديم كل ما يمتع وما يفيد.

ولعلنا الآن نكون قد رددنا على الاعتراض الذي أثير في الفصل الأول المبدأ الأول وهو كيف نطبق مبدأ الجزاء الذاتي دون أن نحدد تحديداً واضحاً معنى الفضيلة والرذيلة تحديداً لا سبيل إلى الشك فيه. فالوسيلة الوحيدة للوصول إلى هذا أن يسود هذا المبدأ الثاني المتصل به والذي يكمله ويكاد يكون نتيجة حتمية له، وهو الحق من طريق الإقناع بالصورة التي وضحناها.

وإذا سادت في المجتمع هاتان القيمتان الساميتان وتمكنتا من أصل بنيانه أن يشعر الفرد شعوراً يقينياً أن من يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره في الوقت الذي يقوم فيه بعمله من داخل ذاته لا من خارجها.. لا من جزاء القانون أو المجتمع أو تأثير الوعد بالجزاء الأخروي، وان كان لا اعتراض لنا على الجزاءات الأخرى ولا نقلل من أهميتها ولا ننكرها فهي تدعيم طبيعي للجزاء الذاتي.

ثم يسود بعد ذلك الحق من طريق الإقناع فلا قوة أيا كانت تفرض عليك رأياً لا يرتضيه ضميرك ولا شيئا تنفر منه بشعورك، إذا سادت في المجتمع هاتان القيمتان العاليتان ماذا يترتب على ذلك؟

(الثقة)

فكما أن الحق من طريق الإقناع نتيجة طبيعة للجزاء الذاتي فكذلك الثقة ستكون نتيجة حتمية لهذين المبدأين مجتمعين.

المبدأ الثالث:

الثقة :

لو سألتني الآن عما نعانيه في هذه الأيام من قلق وتخوف وحذر وعما نضطرب فيه من انكماش وتردد وإحجام عن أي جديد، لأجبتك في كلمة واحدة "أزمة ثقة" لقد أصبح مرض اليوم بلا جدال، ثم قلب أنت النظر في مجتمعك يميناً وشمالاً وفتش في زواياه وأركانه ثم عد إلى نفسك وأنعم النظر والروية فيما تجد من حواجز وعقبات ومن عدم القدرة على التآلف والتعاون، والعزلة الشاملة والانطوائية القاتلة، وحاول أن ترجع هذه المظاهر المتعددة إلى سبب رئيسي واحد فستجد الجواب أمامك واضحاً جلياً... إنها "أزمة ثقة". أزمة ثقة في كل شيء وفي كل إنسان ومع الجميع.

أزمة ثقة متبادلة بين الولد ووالده والمدرس وتلميذه والزوج وزوجته والمرء ومرؤوسيه والزميل وزميله وبين الجار وجاره والحاكم والمحكوم والتاجر والعميل، وقس على ذلك كل ما بين الناس من وصلات ومعاملات وروابط في كل ناحية من نواحي الحياة.

وقل لي بعد ذلك كيف تسقط هذه القيمة العليا من سماء المجتمع وهي شمسه المضيئة، وكيف تعزل عن كيانه وهي روحه الحي، ثم يرجى لهذا المجتمع البقاء. فضلا عن النهوض والتقدم والارتقاء...

أنظر إلى الفرد الذي فقد ثقته بنفسه تجده متردداً خائر العزم. كليل البصيرة لا يصمم على شيء حتى يرتد عنه ولا يقدم على عمل حتى يخور أمامه وتمضي أيامه تنازعه الجواذب من يمين وشمال، ويبدد عمره في دائرة واحدة لا يتعداها، ويفل عزمه عند الصدمة الأولى. أنظر إلى فرد هذا حاله فستجد المجتمع كله على مثاله إذا فقد الثقة بنفسه ولكن على صورة أعمق وأعم وأشمل.

إننا نريد أن نفتح أعيننا جيداً ونفيق من دوامه الكارثة التي تغشانا، ونبذل أخلص الجهد علي قدر الاستطاعة لكيلا نصل إلى النهاية المنتظرة التي نحذرها، ولا يتأتى ذلك إلا أن نبذل من ذواتنا أصدق الجهد متعاونين على الكشف عن العلل الأساسية التي أركستنا فيما نحن فيه ومحاولة الخلاص.. إنك تجد عند الجميع يأس العجز واستسلام البلادة، لقد فترت إرادة الحياة في النفوس ففترت الهمم عن الإرادة في الخلاص مما جعل مهمة المصلح جد عسيرة لأنه أولاً: في حاجة إلى أن يوقظ إرادة الحياة في النفوس التي سئمت الحياة الصحيحة والتي تعيش الآن في سكرة ذاهلة وكأنها دمى تتحرك بلا قلب ولا روح.

ومع ما في هذه المحاولة من صعوبة فيجب أن ننحي اليأس عن طريقنا وأن نعمل على الملاءمة مع هذا الدور بروح التفاؤل والعزم المتين.

نريد تحديد الداء برد العلل الظاهرة إلى سببها الرئيسي، وبعد ذلك يسهل العلاج، ولكنا قبل هذا نريد أن نهز الروح الخامد كيما يستيقظ، والهمم المتراخية كيما تنشط. وبعث الأمل من جديد.

إن علاج ما نحن فيه في متناول أيدينا لو صدقنا الإرادة وما نحن فيه لم يأتنا قدراً أو يسقط علينا من السماء، وإنما نحن صانعوه تحت ضغط ظروف تاريخية وعقيدته وسياسية ولو نحينا عن هذه الظروف ضراوتها لوجدنا الحياة التي نأملها. وأن ننعم بها كما أراد الله سخاء رخاء مترعة بالخير والحب والجمال.

ماذا كان من نتيجة فقد الثقة علينا أفراداً وجماعات.. أستطيع الآن كعادتي أن أضرب تاركا للجميع القياس والاستطراد..

منذ أعوام مضت أقبل إلى القاهرة طالب أعرفه وأعرف أسرته، ليلتحق بالجامعة، وسكن بمنزل في أحد الأحياء الشعبية وكان يجاوره في حجرته هذه رجل في منتصف العقد الخامس من عمره تقريباً، يعمل رئيس عمال بإحدى الشركات، وكان الفتى كما عهدته: دمث الخلق، يتحلى بالطباع الريفية التي تقدس رابطة الجوار. وأنس الرجل إليه فقربه منه وكان كثيراً ما يدعوه إلى سكنه بحضور زوجته ليتسامر معه واطمأن الفتى إلى ذلك، ووجد في علاقته بهذه الأسرة الطيبة عوضاً له عن غربته وانقطاع صلته بأهله وكان ينظر إلى الرجل كوالد وإلى زوجة كأم..

وبعد أسابيع وجد الطالب أن الزوجة تستدعيه في غياب زوجها وتلمح في كلماتها وحركاتها ما جعله يشك في نواياها ويستريب، ولكنه نحى هذه الفكرة عن ذهنه معللا أن هذا دليل على شدة التقارب ورفع التكلفة.. ولما رأت الفتى لا يفهم – جعلت التلميح أقرب إلى التصريح– فارتاع وفزع ضميره وعالج ذلك بأن امتنع عن زيارة المسكن ما لم يكن بحضور الزوج. وأحست هي بمسلكه الجديد فجعلت تتردد عليه في حجرته ساعة غياب زوجها وغالباً ما تكون في ثياب تكشف أكثر مما تستر ولكنه ظل على ترفعه وعناده رغم المحاولات المتعددة لاستمالته وإغرائه.

وذات يوم استأجر ساع بمكتب إحدى الشركات حجرة بأسفل المنزل فتركت صاحبنا واتجهت إلى القادم الجديد ولم يكن لهذا الأخير نصيب من الثقافة والخلق يعصمه من الانزلاق فاستجاب لرغبتها.

وانطوى الطالب على نفسه – بعد أن عرف قصتها – غماً وكمداً وامتنع عن زيارة المسكن حتي في حضور الزوج لأن ولو أخبره فسيفجعه في أعز شيء مقدس، وهو الرجل الطيب وسيترتب على ذلك مشاكل لا عداد لها ووجد أن خير طريق هو أن يعتزل الكل متجاهلا ما يحدث، وهذا أضعف الإيمان.

وعرفت هي أن الخطر يكمن هنا، وأنه يجوز أن يأتي اليوم الذي يفلت فيه زمام أعصابه فيخبر زوجها لأنها كانت تثيره بهذا الساعي وكثيراً ما كانت تغازله على مرأى منه.

إذا فلتحطمه قبل أن يحطمها؛ فأفهمت زوجها بعد أن أظهرت التمنع والتردد أن سبب عزلة الطالب وابتعاده أنه غازلها فنهرته، وكان الفتى قد بدأ يبذل لها النصح من خلال تلميحاته فتهزأ من تلميحاته، وفي ليلة عاد الفتى من الخارج وكان زوجها جالساً في إحدى الحجرات إذ نادت عليه ودار بينهما الحوار التالي علي مسمع من الزوج المخدوع.

هي – مش عيب يا فلان توجه لي مثل هذا الكلام وأنا زي والدتك؟

وأجاب الفتي خجلا وقد ظن أنها عادت إلى رشدها: أنا أسف.. سامحيني.. أرجو الا يتكرر ذلك..

هي: لا.. ما هو مش أصول إن الرجل اللي دخلك بيته ووثق فيك زي ابنه وأكثر تقول لمراته الكلام ده.. يعني لو سمع هو بحادث زي كده.. أنت عارف حايحصل إيه؟

هو: حايسمع من مين حاجة بيني وبينك.. بس أنا كان قصدي..

ولم يدعه الرجل يتم كلامه إذ انطلق من داخل الحجرة منتفضاً يغلي كالمرجل وهجم على الطالب المسكين في عنف مسمعاً إياه

كلمات السباب والتقريع ما لم يسمع بمثله في حياته.. وبهت لهول المفاجأة وحاول أن يعرف أين كان هذا الرجل ولماذا يثور عليه هكذا وهو الذي بذل كل ما في وسعه لينقذ شرف أسرته من العار. وحاول ان يتكلم فأعوزه النطق.. في الوقت الذي كان الرجل يقذف به في عنف وغيظ إلى خارج مسكنه ويزوده بكلمات التقريع في هياج المجنون. وعاد الطالب إلى حجرته يستعرض ما حدث مرتاعاً مما رأى وبعد أن هدأت نفسه راجع ما حدث وعرف كل شيء ولكن بعد فوات الأوان.

وضربت المرأة أكثر من عصفور بحجر: اطمأنت أولا إلى ثقة زوجها لتعمل ما يحلو لها في غفلته واطمأنت ثانياً إلى مصدر التهديد من جانب الطالب فلم تقم له قائمة. وانتقمت ثالثاً من الذي ترفع عنها ولم يستجب لمشاركتها في الإثم الكبير.

وفي صباح اليوم التالي جاءني الفتى يروي لي القصة كما حدثت وهو مصمم على الانتحار إذ كيف يستطيع أن يواجه الرجل بعد ذلك وهو متهم بهذا الاتهام. وكيف يستطيع أن يواجه الجميع وقد ساءت سمعته إلى هذا الحد. الانتحار.. هو الحل الوحيد لكل هذا البلاء..

ولكني طردت من ذهنه فكرة الانتحار، بأن القاهرة مدينة كبيرة لا يعرف فيما كما هو الحال في الأقاليم... كل ما عليه أن يغير مسكنه وستنتهي مشكلته عند هذا الحد.

* * *

هذه حادثة واحدة نستطيع أن نتبين من خلالها مدى ما نعانيه من الوضع المؤلم المعكوس ونكشف على تفهمها موقفنا من الكوارث التي نتردى فيها كل يوم، أفرادًا وجماعات. في طيب الخلق، عف النفس، مترفع عن الدنايا جدير بكل ثقة واحترام في جانب. وامرأة مستهترة تخون الثقة الزوجية المقدسة في جانب آخر، وزوج مخدوع يفهم الأمر على عكس ما كان ينبغي أن يكون في جانب ثالث، ولعله لا يترك فرصة إلا ويشيد فيها بفضائل زوجته وعفتها التي ترتفع فوق مستوى الشبهات.

هذا هو حال المجتمع اليوم في كل شأن من شئونه عائلية أو اجتماعية أو سياسية.

وأناس خائنون غادرون معرضون عن كل فضيلة بعيدون عن كل خلق كريم يدفعهم تفكيرهم الشرير الآثم إلى مداراة عيوبهم وستر نقائصهم وخداع الجميع، ولا يكفيهم ذلك بل يتهمون غيرهم من الشرفاء بعيوبهم وإلباسهم نقائصهم.

وأناس شرفاء فضلاء متمسكون بالخلق القويم لا يجدون فيما يفعلونه ما يستحق الضجيج أو الظهور فلا يحس بوجودهم أحد وهم مع ذلك عُرضة للاتهام وسوء الظن والتأويل.

تجد اللصوص أكثر الناس حديثاً عن الأمانة، وتجد الأمناء أكثر الناس تمسكاً بمظاهر الفضيلة وتجد الأطهار الفضلاء قلما يهتمون بهذه المظاهر. تجد الفارغين التافهين أكثر الناس حديثاً عن الجد والعمل

الصالح. وهناك الأكفاء الممتازون يقومون بواجبهم في إخلاص وأمانة ولا يبدون هذه الغيرة الجوفاء؛ فكيف نتبين من خلال هذا الضباب طريق الصواب.

وهذا ما حدا بالكثير منا إلى نبذ الأمل من صلاح الحال واستحالة عودة الوضع الطبيعي كما ينبغي أن يكون.

افتح باب الجرائم في الصحف، وطُف بدور المحاكم لترى فنون الخداع والوقيعة، وسِر في كل ناحية ومسلك حيث احتكاك العلاقات والمعاملات من أفراد مجتمعك في الشارع في الأتوبيس والسينما وفي دور البيع والشراء لتدرك حالة الحذر والفزع التي يعانيها الإنسان من أخيه الإنسان. ثم سائل نفسك. أفي مجتمع نحن أم في غابة يخيل لي أن حضارتنا هذه رغم المظهر الخادع الذي يبدو لنا هي الامتداد لحياة الغابة على طراز أرقى.

لقد كان شعار الإنسان في عهد الغابة "أقتل وإلا قتلت" وحينما تغوص في أعماق المعاملات الاجتماعية الآن في كل وجوه نشاطنا تجد أثر هذا الشعار محفوراً في الأعماق وأن الاختلاف لا يتعدى المظهر كمن يصافحك باليد اليمنى والخنجر في اليسرى فيغلف لك حقده وضراوته في ابتسامة تخفي وراءها الموت الزؤام.

كهذا الرجل الذي سافر من بلاد نيام نيام إلى إنجلترا وأقام فيها زمناً طويلا حصل خلاله علي أرقى الإجازات العلمية، وبعد عودته اعتزم

أحد زملائه من الإنجليز زيارته.. وشد ما راعه أن رآه كدأب قومه لا يزال يأكل لحوم البشر. ولما لاحظ ما على وجه زميله الإنجليزي من الدهشة والاستغراب أجابه بأنه لا يأكله على الطريقة البدائية التي يستعملها قومه وإنما يستعمل الشوكة والسكين.

أرأيتم أن الخلاف في المظهر وحده؟ هذا هو حال المجتمع اليوم مع اختلاف طفيف...

وسبب هذا شيء واحد "أزمة ثقة" إذ فبالثقة وحدها نستطيع أن نفخر بأننا أقمنا مجتمعاً متحضراً ولكن كيف السبيل.

هل نبشر بها على أعواد المنابر وفي أنهار الصحف؟ هل ينتشر الوعاظ والخطباء في كل مكان يدعون إليها وهل مثل هذا يجدي الآن بعد أن بينا أن الناس أصبحت لا تثق – على الأخص – في هؤلاء الذين يشحذون ألسنتهم بالغيرة على الفضيلة.

إذاً هل نستسلم حتى تأتينا الكارثة التي لا بد منها إن استمر الحال على هذا المنوال.

نريد أن نعرف على وجه التحديد: هل الطريق إليها عسير: أم مستحيل؟ أنا أجزم أنها تدخل في حدود الإمكان على أن تقام على الدعامتين السابقتين: "الجزاء الذاتي" و"الحق من طريق الإقناع"

فحينما يتأكد كل فرد أن المجتمع يسود فيه مبدأ الجزاء الذاتي فلا يستغله بل يبذل كل جهده ليؤدي له الخير وأنه لا يخدعه وإنما يبذل كل مل في طوقه ليلقي إليه بكلمة الحق. وإذا تتحطم العوائق التي تقف في طريق الثقة وسيصير قيامها بيننا أمراً ميسوراً إن لم يكن أمراً محتوماً.

حتي أننا نستطيع أن نقول إن: الجزاء الذاتي + الحق من طريق الإقناع = ثقة.

ونؤمن أننا لا نجد معترضاً عاقلاً يراجعنا فيما نقول.

المبدأ الرابع:

الحب

هل يمكن أن نقيم مجتمعنا على الحب؟... سؤال طالما دار بأذهان الفلاسفة الأخيار والمفكرين المثاليين من قديم الزمان ولكن الوصول إليه جد عسير.. إن الذين نادوا به وبشروا لم يعرفوا الطريق إليه أو لأنهم نادوا به منفرداً فلم يزيلوا من طريقه العوائق التي تجعل الوصول إليه سهلاً طيباً، ولذلك ظل على مدى التاريخ في مكانه الأسمى لم نستطع أن نصل إليه.

ونحن إذ ننادي بإقامة المجتمع على الحب لا نقصد من هذا أنها دعوة إلى ترف يمكن الاستغناء منه ولكنها ضرورة غفلنا عنها فوصلنا إلى ما وصلنا إليه.

فالمسألة التي نحاول أن نضغط عليها ونزيدها إيضاحاً أننا يجب أن نفرق بين الحياة التي نعيشها والحياة التي نأملها. فبعد أن يأسنا من الوصول إلى الحياة الفاضلة استسلمنا للواقع واعتقدنا أن ليس في الإمكان أبدع مما كان.

هذا هو الخطأ الأكبر. إن في الإمكان دائماً أن نصل إلى مستوى أحلامنا لو وطدنا العزم وعرفنا الطريق بيد أننا نريد أن نأخذ

الأمور الجسام باليسر الذي نتناول به أيسر الأشياء مع أننا نملك الطاقة الكافية لتحويل كل شيء إلى ما ينبغي أن يكون.

ولأننا لم نجرب الحياة في ظلال الحب، لم نشعر بحقيقتها ولكنا لو جربنا الحب كقيمة جماعية لعز علينا بعد ذلك ان ننزل عن مستواه مهما يكن الثمن أو العوض المقابل. ونرضى ثانية بهذه الحياة المهنية التي نعيش فيها الآن في ظل الكراهية والصدام.

ونستطيع الآن أن نضرب مثلا يغني عن كثير، ويوصلنا إلى فهم الحقيقة بطريقة علمية ملموسة.

لقد ظل العالم في تاريخه الطويل البالغ آلاف السنين حتى القرن التاسع عشر بلا كهرباء، وكان يمكن – لولا العبقري الذي اكتشفها – أن يعيش حتى الآن بلا كهرباء، ولم يكن يظن أو يخطر في باله أو حتى في أحلامه أن هناك شيئاً في هذا الوجود اسمه الكهرباء.

ولكنا بعد أن اكتشفناها وكيفنا حياتنا وفقاً لها.. هل نتخيل أننا نستطيع أن نعيش بلا كهرباء، ولنتصور مدى الارتباك الذي نعانيه حينما ينقطع التيار لسبب من الأسباب لبضعة أيام، بل بضع ساعات. هذا بالنسبة لشيء مادي في حياتنا. فما بالنا إذا أرضينا الضرورة العاطفية بالحب؟

نعم نحن نؤمن، وعلم النفس يؤيدنا في هذا أنه ضرورة عاطفية، وليس إغفالنا لها كل هذا الزمن الطويل بالذي ينفي وجودها بل لعله أصلح شاهد عليها لما نعانيه من عدم تطبيقها من كل هذه الويلات. وقد حدثني أحد معارفي أن زميلاً في دفعته الجامعية سافر في بعثة إلى أمريكا ليلتحق بمعهد اجتماعي فكلفه أستاذه بالمعهد أن يقوم ببحث بعض الحالات الاجتماعية لحي من الحياء الفقيرة في نيويورك وذهب الطالب المصري وهو معتقد أنه سيرى حالة من حالات الفقر التي كان يراها في زوايا الأحياء الشعبية بالقاهرة والأقاليم، وشد ما راعه أن رأى معظم الذين زارهم وبحث حالتهم يملكون في منازلهم الفريجدير والتلفزيون والمكنسة الكهربائية وغير ذلك. وعاد يكتب في تقريره بناءً على هذه المعلومات أن الحي الذي زاره يتمتع أصحابه بمستوى مادي مرتفع واستدعاه أستاذه بعد قراءة التقرير ليسأله عن الأسباب الأخرى التي توصل إليها في بحثه؛ فأجاب الطالب: لقد كتبتها في تقريري.. فرد عليه الأستاذ باسماً شارحاً له أن ما ذكره في تقريره إنما هي الضروريات التي لا يمكن لفرد أن ينزل عن مستواها.. هذا هو الفرق بين بلدين في عصر واحد.. تحولت الكماليات المادية بزيادة الدخل أو بتوفير الطاقة الي ضروريات فما بالنا إذا أتحنا الفرصة للضرورة الروحية أن تتنفس في جوها الطليق..

* * *

ويحسن أن نعرج هنا على الأهداف التي ثار حولها الخلاف بين فلاسفة الأخلاق على مر العصور، وتنحصر في ثلاثة أشياء:

١- الباعث...
٢- القيمة...
٣- الغاية أو الأثر...

هذه هي المجالات الثلاثة التي يوالي فلاسفة الأخلاق الدرس فيها والتطور بها والاختلاف عليها؛ فمنهم من يضع الباعث في الدرجة الأولى، ومنهم من يتمسك بالقيمة، ومنهم من يهدف إلى الأثر.. فلنتتبع وجهة نظرهم في هذه المجالات الثلاثة، وننظر إلى القيمة وحدها ولنتخذ الصدق مثلا فهو قيمة أخلاقية متفق عليها في الجميع..

ولكنا نرى أثرها سيئاً إذا قلنا الصدق لاثنين متخاصمين عما قال أحدهما في الآخر حالة غضبه حين نريد الصلح بينهما.

فإذا تمسكنا بالأثر وحده وطبقناه على بناء مستشفى مثلا بناه صاحبه للفخر والمباهاة وليتحدث الناس عن كرمه وإحسانه وآخر بناه بدافع العاطفة النبيلة والرحمة للمحتاجين من المرضى لتجلى لنا بعد ذلك المجال الحقيقي للخلق.

إنه الباعث وحده... لماذا؟.. لأننا لو نظرنا إلى باعث الكذب للصلح بين المتخاصمين وهو سيادة المودة بدل الجفوة والقطيعة لغضضنا النظر عن القيمة، والغض هنا لا يضر بها.

ولكنا لو غضضنا النظر عن الباعث بين الاثنين في بناء المستشفى لكان معنى ذلك سيادة النفاق كخلق، والنفاق إذا انتشر تقوض بناء المجتمع.

وفي المثل إذا حسن الباعث – وهو سيادة السلام – اطمأننا إلى كل الأعمال اللاحقة لهذا الشخص وهو انصرافه عن القيمة لضرورة أو لقيمة أرفع منها. إذاً فحيث يكون خط السير الباعث يكون المجتمع.

وهنا يبدو سؤال آخر: هل يترك الإنسان القيمة المثلى إذا ترتب عليها ضرر؟

والإجابة هنا دقيقة: هناك فرق بين الضرر الواقع على الفرد نفسه من التمسك بالقيمة وبين الضرر الواقع على المجتمع؛ فإن كان الضرر واقعاً على الفرد في سبيل المجتمع فيلزمه الباعث الخلقي ألا يتخلى المرء عن القيمة بل يتبعها مهما يكن الثمن كالاستشهاد في سبيل الوطن أو في سبيل عقيدة عليا.

أما إن كان في سبيل قيمة أعلى من الصدق، وهي السلام – كما بيَّنا سابقاً – فعلى المرء أن يتخلى عن القيمة الصغرى في سبيل قيمة كبرى، وأن يوازن ما بينهما.

وما الدافع الأصيل الوحيد الذي يجعل المرء يرضى بالضرر الواقع عليه ولا بالضرر الواقع على غيره، وبعبارة أخرى ما وراء الباعث.

إنه الحب..

إننا حين نقيم مجتمعنا على الحب وننعم بمزاياه سنلتفت خلفنا لنترحم على هؤلاء الآباء والأجداد عبر التاريخ كله وسنأسى عليهم ونرثى لهم، لا لأنهم عاشوا حياتهم بلا ميكانيكا أو كهرباء وما اليها من الوسائل المادية ولكن حرموا نعمة الحب الجماعي فلم يستمتعوا بهذه العاطفة النبيلة السامية أمتع وأرقى عاطفة في الوجود.

إن محمداً رسول الله (صلى الله عليه وسلم) وصف الجنة فقال "فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر".

والقرآن يصف لنا حال المقيمين بها ليرينا أن الجديرين بمتعه الحياة في الجنة هم هؤلاء: "ونزعنا ما في قلوبهم من غل إخواناً علي سرر متقابلين"

فإذا كان نعيم الجنة فوق إدراكنا، بل فوق خيالنا لا نستطيع أن نتعرف عليه بوسائلنا البشرية فإن فينا من القوي الروحية ما يمكننا أن

نكون على مثل حال الجديرين بالإقامة فيها بأن ننزع ما في صدورنا من غل وأن نعيش إخواناً متحابين متألفين.

ولماذا نتباغض ونحن نقطع معاً رحلة الحياة". فلماذا نقطعها متخاذلين متدابرين؟

فالإنسان هو العنصر الوحيد الذي يجعلنا نحس للحياة طعماً، وللوجود قيمة واعتقد جازماً أنه لو قيل لأبشع أناني على ظهر الأرض، إننا على استعداد أن نهبه كل ما في الدنيا من ذهب وكنوز وعلوم ومساكن وغيرها، ليعيش بها وحده لا يشاركه فيها مشارك ولن يكون على ظهر الأرض غيره إذاً لكان الرد بالرفض القاطع المبين.

جرب أن تسير وحدك في صحراء خالية من الناس لتحس الوحشية وتستشعر الخوف، بل سر في شوارع العاصمة ذاتها بعد منتصف الليل، إن الشوارع هي الشوارع، والأنوار هي الأنوار، ولكنها خالية من العنصر الرئيسي الذي يضفي البهجة على كل شيئ.. إنه الإنسان.

هذا مع الوضع المزرى الحاضر الذي نعيش فيه، فما بالنا لو كان ذلك في مجتمع يقدس الحب ويعتبره في المنزلة العليا.

إننا لا نستطيع أن نحب الإنسان الحب الصحيح ما لم نحترمه – فلا يظفر قليل الاحترام بالحب – وحتى نحترمه لا بد أن نقدره فنراه على حقيقته كأبدع وأروع مجلي لعظمة الله وقدرته وإبداعه.

إن ضغط الظروف الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية هي التي فرقت بين الأخ وأخيه وقسمت الجنس الواحد على نفسه وجعلت منه المستغل والمستغل. والسيد والتابع وصاحب السلطة والعبد الذليل.

وماذا جنى الإنسان من هذا التقسيم؟.. لا شيئ إلا الحقد والتربص والحذر والألم الوضيع فحتى الألم مع الحب ألم نبيل عزيز.. أما ألم الحقد والكراهية فهو ألم مظلم كالح يقطر السم من ثناياه.

أُنظر إلى ألم الأم مع طفلها، وهي تسهر عليه الليالي وقارن بينه وبين ألم الحقد والمناجزة والمعاداة.

هذا ألم يكسب النفس صفاء ويرتفع بها الي السماء.

وهذا ألم يلف النفس بسواد الظلمة ويهوي بها إلى الحضيض.

مع الحب كل شيئ جميل ممتع حتى الألم، وفي المعاداة كل شيئ بغيض قابض، حتى النصر، إن هذه الحياة حياتنا.. علينا أن نكيفها وفق ما نحب ونهوى والكراهية ليست عنصرًا أصيلًا في طبيعتنا ولكنها شيئ مدخول ورثناه مع التركة الخائبة التي أورثنا إياها من جهلوا فن الحياة؛ فإذا بشرنا اليوم برسالة الحب فإننا لا ننشد المستحيل ولا

نضرب في بيداء الأوهام، ولكننا نريد أن نصحح الوضع المعكوس وأن نستمتع بأرقى عاطفة وهبت للإنسان وأنبلها وهي أن يكون محبًا محبوبًا. ولكن الوصول إليه ليس بالسهولة التي نتصورها كما أنه ليس مستحيلًا.. كل ما علينا أن نعرف سبيله وننحي العوائق عنه ونحن بعد ذلك في حاجة إلى رياضة نفسية تسمو بنا إلى مستواه..

وليس هذا غريبا؛ فالذي يريد أن يقوي بدنه، وهو أيسر ما يملك لا بد له من التزام أصول الرياضة البدنية التي يحددها المختصون والزمان اللازم لذلك.

والذي يريد أن يحصل على مزيد من المعرفة أو على درجة علمية لا بد من رياضة عقلية وسهر في المطالعة والتفكير وشحذ جميع القوي الفكرية والعقلية.

فلماذا حينما ننشد حياة فاضلة في مجموعها العام نريد أن نتناولها بأيسر سبيل.

فالرياضة النفسية هنا – لكي نحيا حياة أفضل – ألزم من اهتمامنا بالرياضة البدنية والعقلية مع تركيز اهتمامنا فيهما وترك الاهتمام بما يجب أن يقوم في المقام الأول.

في ظلال الحب، ستختفي كل الصفات الموروثة من حياة الغابة كالحقد والحسد والصراع لأتفه الأشياء.

أجل ستنقرض هذه الصفات التي لا يليق بإنسان متحضر لتحل محلها صفات عليا جديرة بكلمة إنسان..

وحينما نلتزم المبادئ الثلاثة التي عرجنا عليها آنفاً نكون قد نحينا كل العوائق التي وقفت في طريق الحب من تاريخنا كله.

وحينما يثق كل فرد أن الآخرين يدينون بمبدأ الجزاء الذاتي فيفعلون الخير لوجه الخير ثم يقدمون ما اهتدوا له من حقيقة بلا ضغط ولا خداع، ويتبادلون معه الثقة في كل شأن من شئونه فماذا بعد ذلك سيبقى في الطريق؟؟

النتيجة الطبيعية لهذا كله أن ينمو في داخلنا روح المحبة والإخاء وما يتولد عنه من فضائل وصفات حتى إننا نستطيع أن نجزم بصحة هذه المعادلة.

الجزاء الذاتي الحق من طريق الإقناع + الثقة = الحب.

ونحن واثقون من سلامة التقدير.

المبدأ الخامس:

الحرية :

> مشكلة المشاكل بلا جدال، وهي التي حيرت أصحاب المواهب من رجال الفكر والفلسفة وواضعي النظم علي اختلافها منذ فجر التاريخ حتي اليوم والتي لم يتفق على مدلولها نظام مع غيره، ووقف الكل يتشدق بها ويدعيها لنفسه وينكر فهمها على الآخرين.

هي الشيء الوحيد الذي احتضنه أصدقاؤه وأعداؤه معًا؛ فليس هناك من نظام مهما يبلغ من السوء إلا بشَّر بها، وليس هناك من حاكم مهما يطغى إلا جعلها على رأس هتافاته. وضاعت في زحمة الدعوات معالمها وانطمست حدودها فلا تستطيع أن تتبينها وسط الضجة وإن دققت النظر وأحكمت الأداء.

ولا شك أن من بين من بشَّر بها أناسًا مخلصين تعبَّدوا في محرابها عن عقيدة وإيمان ولكن خطأهم أنهم ضلوا الطريق إليها فلم يقيموها على الأساس الصحيح الذي يجب أن تقام عليه كل القيم.لم يقيِّموها على الأساس الداخلي للنفس، وإنما أقاموها من الخارج ونظموا لها الحدود فكانوا لها كأعدائها لأن البناء الذي أقاموه على غير أساس لا يلبث أن ينزاح مع أول عاصفة تعبر الطريق.

إن الديمقراطية بمعناها الأصيل لتعد أعظم وأنبل دعوة وجدت لتمجيد الحرية في تاريخ الإنسان حتى الآن، ولكنها على الرغم من مزاياها التي لا تنكر لا تستطيع أن تدعي أنها أحاطت بالمشكلة من جميع وجوهها فلا يزال في بنائها الضخم العتيد ثغرات وثغرات.

ما أقصى ما وصلت إليه الديمقراطية حتى الآن على أحدث التفاسير؟.. إنها حكم الأغلبية أي التي تعمل لصالح الأكثرية المطلقة لا لصالح أقلية مهما كان لونها ومنزلتها.

ولكن هذه الأقلية – مهما كانت ضئيلة – ولو كانت تعد بالآحاد ما ذنبها؟ من يتولى حمايتها؟ بل ما ذنب فرد واحد في المجتمع كله يحس أنه غريب في وطنه مهدور الرعاية أو ساقط الاعتبار؟

فالنظام الذي يفخر بأنه سند الأغلبية من رعاياه إنما هو نظام سيئ.. أو هو لم يبلغ من الصلاحية الحد الذي يجب أن نقف عنده ونركن إليه.

يقول القرآن الكريم: (ومن قتل نفسًا بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعًا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعًا) هكذا؛ فحياة الجميع وحدة لا تقبل التجزئة وكذلك الحرية لا تتجزأ؛ فالدولة التي يظلم فرد واحد من رعاياها أو يشعر أنه غريب في وطنه أولا تتاح له الحرية المطلقة ليعمل ما يستطيع أن يعمل ويقول ما يريد أن يقول هي دولة غير جديرة بقيامها أو احترامها؛ لأنها

سلبته حريته التي هي صنو حياته، وعاقبته بلا ذنب ولا جريمة، وقد يعدل هذا الفرد الواحد الأمة بأسرها لو أقمنا له الميزان.

يقول توماس جيفرسون "إنَّ الله الذي وهب للإنسان الحياة وهبه الحرية في نفس اللحظة ولنفس السبب" فلا نتصور أن نفصل بين الحياة والحرية فهما متلازمان كالروح والجسد.

هذه هي الغاية، ولكن كيف السبيل؟

السبيل أن نتجنب الأخطاء التي وقع فيها السابقون من الدعوة إلى القيم العليا دعوة انفرادية فلم يدركوا ما بين القيم من ترابط ولم ينظموها التنظيم الصحيح، وليس معنى هذا أن نقف عند هذه النقطة لا نتعداها، ولكننا نشكر لهم محاولاتهم الصادقة وتضحياتهم الجريئة في هذا السبيل ونستخلص العبرة مما مضى فلا نكرر الأخطاء، وسيكون الوصول إلى الطريق الصحيح تتويجاً لجهودهم البارة الخيرة في نشدان الحقيقة والسمو والكمال..

* * *

لا يمكن أن نسرد في المجتمع هذه القيمة العليا (الحرية) إلا إذا تحرر كل فرد من نفسه أولا:

من أنانيته الضيقة ونظرته إلى الأمور من زاويته حدها وعدم الاهتمام أو عدم الاحترام لرأي الآخرين. وبعد أن تسود في المجتمع كل

القيم العليا التي قدمناها والتي يكون بها الإنسان إنسانًا، فالحرية الحقيقية هي الغابة النهائية لبني البشر..

هي الشاهد علي أنهم تخطوا صعودًا كل الدرجات العلى وبلغوا القمة التي لا غاية وراءها ولا زيادة بعدها لمستزيد. لا بد أن تسود في المجتمع هذه القيم أولا..

الجزاء الذاتي – الحق من طريق الإقناع – الثقة – الحب.. وبعد ذلك تكون الحرية.

فإذا سادت هذه القيم تكون الحرية نتيجة طبيعية لها فالمجتمع لا يحد من حرية فرد من أفراده ما دام يعمل بمبدأ الجزاء الذاتي فيقدم كل ما في وسعه من خير، ويبذل جهده مبشرًا بكلمة الحق.. ويتبادل معه الثقة في كل خطوة بخطوها – ثم يكن له أصدق الحب فلماذا لا يتركه حرًا؟ إن حريته حينئذ ستكون في خدمة المجموع. لن يكون له نشاط هدام أو خروج على القانون.. سيكون نشاطه كله في خدمة البشرية علمًا وجهدًا وفنًا..

فحينما نقصد الحرية لا نقصدها بمعناها المعروف وحده، كحرية الوطن وحرية الجماعة وما إليها فهذه مدلولها قد تحدد في الأذهان والواقع على صورة واضحة ملموسة.

ولكننا نقصد الحرية بمعناها الأخص للفرد لكي يعمل على تحقيق ذاته.. هذه هي الحرية التي نبشر بها وندعو إليها.. أن تتوفر لكل فرد ضرورات الحياة من الأمن المعنوي والمادي كي ينعم بما يكتشفه في داخله من فكر وعاطفة وشعور من خلال تفاعله مع الكون أو تجاوبه مع الإنسان.

نريد للفرد أن يتفاعل مع الكون في كل خفقة من خفقات قلبه وأن يتجاوب مع الإنسان في كل همسة من همسات روحه.

وحينما تبلغ الحرية مداها إلى هذا الحد يتحول الوجود إلى موسيقى سرمدية رائعة وتنتفي حدة الشر والخطأ والتحدي والسيطرة وتخضع كل القوانين الوضيعة للحرية في مدلولها الواسع.

فيكون للطفل حريته في العبث المناسب له، وللشاب حريته في إظهار التفوق والتحصيل حتى مظاهر الاعتزاز والغرور، وللرجل الناضج تفكيره السليم المبني على التجربة والثقة، وللشيخ تأملاته وفلسفاته على النحو الذي يريد، وستتفرع من هذه الاختلافات الرئيسية اختلافات جزئية أخرى لا حصر لها حتى يكون لكل فرد صورة متميزة خاصة لا يشاركه فيها غيره، ولكن هذا الاختلاف الفردي وسيلة إلى التآلف الجمعي في نهاية الأمر كما نعدد أنغام الموسيقى وتتفق في الوصول إلى لحن موحد جميل لا أن يصاغ الكل تحت وطأه الضغط القاسي في قالب واحد متكرر ممل رتيب.

فالحرية بهذا المعنى ضرورة إنسانية من فقدها إنسانيته وأصبح شبحًا بلا روح، لأن الفرد الذي لا يتصرف أي تصرف إلا بعد أن يستشير القانون ثم يحسب حساب تقاليد المجتمع ويقدر الظروف الداخلية والخارجية المستطاعة.. مثل هذا الفرد لا يمكن أن يقوم في حياته بعشر معشار ما ركب في طبيعته من مزايا ومواهب. وكذلك الذي يكافح الضرورات الأولية اتقاء الفقر والخوف بل يجد الوقت الكافي للبحث في تحقيق ذاته ولإبراز ما فيها من خير وجمال يسعد هو بالكشف عنه والعمل له ويسعد الآخرين بالتذوق والاستجابة والاستقبال.

ولذلك فنحن حينما نربط الحرية بالقيم السابقة لا نقيدها، وإنما ننحي عنها عوامل الفوضى التي هي أشد خطرًا من كل قيد. ولا شك أن من أهم أسباب فشل الدعوات السابقة للحرية وعدم استجابة الناس لها كان مرده الخوف من خطر الانزلاق في الفوضى.

فلا عاصم لنا حتى، ونحن نبحث عن الحرية في مدلولها الأسمى أن نقيدها ببعض القيود ولكنها ليست قيودًا مفروضة من الخارج كسلطة القانون أو سلطة الحاكم أو الفزع من الرأي العام.. ولكنها قيود نابعة من الداخل، من فيض الإرادة ووحي الضمير.

الحياة

كل ما قدمناه من القيم السابقة إنما هو مقدمة لنتيجة نبتغيها وغاية نرجوها.

فما هي هذه النتيجة وما هي هذه الغاية؟.. إنها الحياة.. الحياة المظلومة التي عانيناها في أشعارنا وتبرمنا بها وسخرنا منها ووصفناها بأقبح الصفات.. أنا لا ألوم من سخر أو تبرم.. ولا أهزأ بمن نعاها وتمرد عليها؛ لأنها بوضعها الحالي لا تستحق الاهتمام فضلا عن الاحترام. ولكن اللوم كل اللوم على من يجد الحياة الصحيحة ثم ينكص على عقبيه لأنه يريد أن يتناولها بأيسر سبيل.

الحياة الجميلة ومن طلب الحسناء لا يغلها المهر، والحياة الراقية الرفيعة معقدة؛ فليكن لنا من الإعداد النفسي ما يجعلنا نتناول تعقيدها ببساطة أي أن نكون لها أكفاء.. أُنظر إلى العامل عندما يقوم بإعداد آلة في أول أمره تجده مضطرباً يتناول أبسط الأشياء في حذر وتردد ثم أُنظر إليه بعد أن أتقن مهنته ومرن عليها تجده يتناول أعقد الأشياء بسهولة ويسر بل تراه يقوم بأدق الأعمال جيداً وهو يتحدث إليك أو يتشاغل بعمل آخر.

هكذا يكون موقفنا من الحياة في تعقيدها، لا نريدها بسيطة دنيئة فتلك حياة حيوانية لا يرضاها الإنسان الراقي، وإنما نريدها عزيزة معقدة

سامية ثم نروض النفس عليها فنجني منها ثمارها الشهية على قدر الإمكان في حدود ما توصلنا إليه من علم وفن وتجربة.

فالحياة التي نريدها إنما هي جماع القيم العليا ولن تكون بالسعادة المرجوة إلا إذا أقمناها على تلك القيم، فقاعدة الاكتفاء الذاتي لا تصلح للحياة في مجموعها لأن هذه الحياة المنشودة تقوم على التعاون والحب. فلو كانت الحياة قائمة على الاكتفاء الذاتي لحرمنا أجمل معاني الوجود من الحب والمودة والألفة؛ فلا مفر لنا إن كنا نبغي الحياة الصحيحة من أن يعمل أحدنا من أجل الآخر مادة ومعنى. وفي النهاية سنجد المحصول المتبادل أكثر نفعاً وأعم فائدة مما لو كنا أنانيين مغرقين في الأنانية.

فالذي يجمع المال بأي وسيلة لن يسعد به السعادة المأمولة لأنه يهدر قانون الحياة الطبيعي فيحتجن لنفسه ما ليس أهلا له. ويهدر قانون الوجود الإنساني بانعزاله عن الجماعة وانطوائه على نفسه وسيحرم من نعمة الحب والتعاون ولن يجني إلا الحذر والخوف على ما جمع.

فنحن حينما ننشد الحياة الفاضلة السعيدة إنما ننشدها للجميع حتى للأنانيين أنفسهم فإنهم لن يبلغوا بأنانيتهم مهما استشرت وتضخمت ولو ملكوا كل ما على الأرض من كنوز ما يعدل بسمة رضا من صديق أو انعطاف مودة من حبيب.

هذه هي مصدر الثروة الحقيقية:

الثروة الإنسانية.. التعاطف الإنساني.. البر الإنساني.. الحب الإنساني، هي التي تجعلنا نرتشف حلاوة الحياة التي حرمناها في تاريخنا كله.

ونحن لا نقصد بحديثنا عن القيم العليا التي بيناها سابقًا أننا أبرزنا كل ما فيها من جمال وفائدة أو أتينا بجديد لم يأت به الأوائل وإنما أشرنا إلى مزايا كل قيمة إشارة عابرة. لأننا لا ننكر على السابقين أنهم تنبهوا إليها، فقد كان لكل قيمة عليا أنبياؤها وشهداؤها ولو أردنا أن نسرد مزايا كل قيمة فلن نجد أبدع مما تغنى به رسلها السابقون في كل مكان وزمان، وإنما كل همنا هنا هو تقرير القواعد وإرساء الأصول وتبيان الأخطاء التي اعترضت طريق السابقين لنعمل على تفاديها.

* * *

أول هذه الأخطاء هي النظرة الانفرادية؛ فالذين بشروا بالثقة أو الحب أو الحرية ركزوا اهتمامهم بها وغفلوا عما عداها وتغنوا بها على أنها مثل أعلى لا يمكن تطبيقه كالشاعر العذري الذي يتغنى بجمال محبوبته وهو لا يراها. فإن رآها خلع عليها من فرط القداسة ما ينأى به عن ملامستها.

ثانيها، أنهم لم يقيموها على الأساس النفسي من الداخل، وإنما أقاموها على السطح من الخارج فلم تثبت أمام زعزعة الأعاصير.

ثالثها، أنهم كانوا يقنعون بالإصلاح الجزئي وبالترقيع للنظم السائدة ولكننا هنا أطحنا بالبناء المتداعي من أساسه وأقمنا على أنقاضه حياة متكاملة ووضحنا السبيل للسالك بلا تيه ولا ألغاز ولا معميات، وهو قابل للتطور والسمو به درجات بعد درجات على مدى الأجيال.

* * *

وحينما نصل بالحياة إلى هذا المستوى الكريم سيجد الفرد كل ما في الحياة من جهد وفكر وخير في متناول يده بلا من ولا ثمن.. كما يروى عن أمير المؤمنين هارون الرشيد أنه رأى غمامة تمر فوقه ولم تمطر فرفع بصره إليها وقال: أمطري حيث شئت فسيأتيني خراجك.

قالها وهو يتمتع بعزة الملك وانفساح الرقعة تحت إمرته، أما بعد تطبيق هذه المبادئ فسيكون في وسع كل فرد عادي أن يقول لكل ثمار الحياة من جهد وفكر وفن أينعي حيث شئت فستأتيني ثمارك.. سيكون ما على الأرض من ثروات مادية وروحية ملك للجميع، ولكل إنسان لأنه إنسان لا ملك متجبر أو حاكم متكبر أو عظيم مغرور، وعلى ذلك فستكون حياتنا منذ الآن على هذا النمط البديع.

الجزاء الذاتي + الحق عن طريق الإقناع + الثقة + الحب + الحرية = حياة.

إذا فدعوتنا ليست دعوة أخلاقية غايتها تمجيد الأخلاق والتغني بمحامدها، ولا ندعي هنا أننا أتينا بجديد. لقد أفاض فلاسفة الأخلاق وشراحها في مزية كل قيمة على حدة بما لا نطمع نحن ولا غيرنا في أكثر منه، ولكن الجديد في دعوتنا أنها أبعد مدى وأوسع ميداناً. إنها دعوة إلى حياة أفضل وتحديد الوسائل التي نمارس بها هذه الحياة وإفساح المجال لكي نحياها في كل منحى من مناحيها وكل معنى من معانيها عن طريق هذا الترابط الذي أسلفنا الإشارة إليه.

سؤال

عندما أرجع الآن بفكري إلى الوراء، إلى فجر شبابي، وأتذكر هذا السؤال الحائر الذي طاف بنفسي لأول مرة (ألا نستطيع أن نقيم مجتمعنا على الحب؟) كان ذلك منذ عشرين عامًا.. ولم أكن أتوقع أن أجد جوابًا فقد كنت ساعتئذ متأكدًا من استحالة تحقيق هذا الجواب، وإنما كان هروباً من ضيق الواقع إلى فسحة الأحلام. ومع ذلك ما فتئ هذا السؤال يقفز إلى ذهني كلما رأيت كيف يعيش الناس وكيف يتعاملون وكيف يتصرفون تصرفاً كله الغش والخداع والنفاق.

وبعد سنوات من استمرار الإلحاح بدأت أفكر تفكيرًا جديًا إذ اتخذ السؤال صيغة أخرى (ما الذي يحول دون تحقيق قيام المجتمع على الحب؟) وأعملت فكري في البحث وراء السر إلى أن تأكدت أن الثقة المفقودة هي العلة الرئيسية. ولكن كيف نعيد الثقة إلى النفوس وفي المجتمع ما فيه من ألوان الزور والحقد والحذر؟

وبذلك خرجت من تيه إلى تيه فلم تكن الإجابة على السؤال الثاني بأقل عسرًا من الإجابة على السؤال الأول. واعتصمت بالصبر وتركت حل المشكلة للزمن والتجربة والدراسة، وكانت كل ثقافتي في الكتب وملاحظاتي في المجتمع وخواطري في النفس طوال هذه المدة

التي كانت كل شبابي المدخر تدور حول هذا المحور إلى أن وفقت إلى فكرة الجزاء الذاتي فأيقنت أني عثرت على الجواب.

عند ذلك أخذت الأمر مأخذ الجد وعبأت كل قواي لإتمام هذه الرسالة وأضنيت نفسي في البحث وراء هذه المجالات الثلاثة الكتاب والمجتمع والنفس، إلى أن تأكدت بصواب هذه المعادلة الجزاء الذاتي + الحق من طريق الاقناع = الثقة وأنني بهذا قد عرفت الطريق الصحيح إلى الحب.

ولا تسل عن سعادتي حينما تبين لي أني عثرت على الجواب.

ولم يكن ذلك كل شيئ، فقد كان القدر يعد لي مفاجأة أخرى على أعظم جانب من الأهمية لم أكن أتوقعها ولم يكن يدور في خيالي البحث عنها، مشكلة معقدة أشد التعقيد حيرت جبابرة العقول وأذهان الفلاسفة منذ فجر التاريخ حتى اليوم. إنها مشكلة الحرية.

إذ ثبت لي من خلال مراجعاتي الطويلة للموضوع وتقليب الأمر على جميع وجوهه للتأكد من سلامته أن: الجزاء الذاتي + الحق من طريق الإقناع + الثقة + الحب = الحرية.

وأذهلتني المفاجأة، وكان هذا فوق خيالي، بل فوق احتمالي وشعرت أني أخرج من ضيق الواقع الذي عشنا فيه إلى عالم طلق رحيب غير مطروق، وأنني بهذا أكون قد ذللت مشاكل الثالوث المترابط

جميعها: مشكلة الأخلاق.. مشكلة الاجتماع.. مشكلة السياسة.. إذ أن هذه القوى تتعاون جميعها كلٌ في ميدانه للبحث عن هذه الحرية، حرية الفرد في تحقيق ذاته.

ولأول مرة في حياتي أحس بضخامة المسئولية إزاء هذا الموضوع، بل لقد طاف بنفسي طائف من الفزع والرهبة والحيرة.. ماذا يكون موقفي وأنا أشرف على هذا العالم المجهول؟ حتى إنه دار بخاطري أن أطوي هذا السر بنفسي لا أطلع أحدًا عليه فقد يترتب على الإفصاح عنه عكس ما كنت أتوقع للبشرية من السعادة والهناء.

فماذا ندري بعد أن تختفي المشاكل التي صاحبت الإنسان في تاريخه كله وألفها وألفته".. ماذا ندري لو انتهت هكذا فجأة دون أن يُصاب بالذهول أو يعتريه الدوار والارتباك.

إن الانسان لأول مرة في تاريخه، بعد تحقيق هذه القيم سيقف أمام ذاته وجهاً لوجه، وإن صح هذا التعبير سيشرف على عالم أوسع من هذا العالم وأعجب.. عالم النفس التي شغل عن تفهم أسرارها في خلال صراعه الطويل على مدى الأزمان من أجل القوت أو من أجل الحرية.

لقد كشف الإنسان في الأرض كثيراً من الأسرار المادية المحيطة به واخترق أجواء الفضاء وغاص في أعماق المحيطات؛ فراعه ما في الكون من غرائب وعجائب وقوانين أذهلته حتى ظن أن المادة ولا شيئ وراءها وأن العلم الطبيعي سيحل المشكل كله. وأن الاقتصاد هو المحور

الذي تدور حوله القيم والنشاط العام. أما اليوم فسيتجه وجهة أخرى تناقض الوجهة الأولى وتستثمرها لمصلحتها وجهة النفس وما فيها من كنوز وآيات تزري بكل ما توصل إليه من كنوز العلم والمعرفة المادية.

وما أن وصلت إلى هذا القدر من التفكير والمراجعة حتى تجلت في وعي هذه الآية الكريمة وكأني اراها لأول مرة: "وفي السموات آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون".

* * *

وقد يسأل سائل: إن تحقيق الذات ممكن على أي وضع وفي ظل أي نظام وإنك لتنظر إلى المجتمع اليوم فترى كل فرد فيه له ذات متميزة وطابع وسلوك منفرد به ألا يدل هذا على أن تحقيق الذات ممكن على وجه من الوجوه؟ وأجيب أن هذه هي النظرة السطحية العابرة.

والأصح أن نقول إن الفرد في هذا الوضع يزيف ذاته ولا يحققها. فكل واحد منا يعيش بشخصيتين متناقضتين يبدي للناس الصورة المزيفة ويخفي الصورة الحقيقية.

فالمجتمع في جملته أشبه بالحفل التنكري الذي يلبس كل من فيه قناعاً يخفي معالم شخصيته ولكن ما أبعد الفرق بين قناع الحفل وقناع الحياة لأن قناع الحفل تستطيع أن تزيله بيدك لتعرف من هو الشخص الذي يختفي خلفه أمام قناع الحياة. فيكلفك تجربة ضخمة

عالية تستلب مالك أو تهدد كيانك أو تدمر حياتك فنحن نعيش في ظل مثل مقلوبة صيغت فضائلها في قالب الرذائل ورذائلها في قالب الفضائل.

فنسمي النفاق براعة والصفاقة شجاعة، والتسامح عجزاً والترفع ضعفاً والإخلاص غباء وهكذا، ولا يستطيع الإنسان أن ينعزل انعزالًا تامًا عن مجتمعه إلا إذا قضى حياته في دير أو على قمة جبل ولا بد أن يتكيف مع الوضع السائد بقدر مناسب على أي حال وقاعدة التكيف تفرض على الفرد أن يختبئ وراء القناع.

ومن الغريب أن الرجل النبيل المتسامح مضطر لكي يعيش أن يضع قناعًا من الغطرسة والتكبر والعنف حتى لا يطمع فيه الناس ويتهمونه بالجبن حسب مثلهم المقلوبة. إذا أبدى شخصيته على حقيقتها. هذا وتجد المجرم الأصيل اللئيم الطبع يضع على وجهه قناعًا من البراءة والتسامح والنبل كي يستطيع اغتيال فريسته في الظلام، وكل يوم نلمس أكثر من شاهد حي على ما نقول.

وحينما يريد إنسان فاضل أن يمشي في الحياة بغير قناع ويظهر نفسه على حقيقتها ويبرز ما عنده من الشمائل نجد المجتمع بدافع لا شعوري يحذره ويتخوف منه ويكون حريصًا في علاقته به ومعاملته معه لأن كل فرد يحس في قرارة أعماقه أنه يعيش في مجتمع كل واحد فيه يحمل القناع.

وقد يدرك مجرم أصيل صدق طويته ونقاء ضميره فيقذف من خلفه بإشاعة دنيئة تلون كل أعماله باللون الإجرامي فيصبح هدف سخرية الجميع واستهزائهم، وكلما أمعن في إبراز فضائله بالغ الناس في التنقيص والازدراء حتى تطويه دوامة الإشاعة من جميع نواحيه وتبتلعه في جوفها مشيعًا باللعنات، على حين يقف المجرم الحقيقي وسط الجميع شامخ الرأس يفرك كفيه سرورًا ويبتسم في أعماقه ويتظاهر بالغيرة على الفضائل التي يدنسها كل يوم في غفلة عن الجميع.

* * *

وقد تظهر في مجتمع كهذا طائفة من الأدباء والمفكرين على جانب من الامتياز فلا نقول بهذا إنهم حققوا ذاتهم ولكنهم حققوا جانبًا من جوانب ذاتهم هو الجانب الفكري أو الفني على حين تبقى حياتهم في مجموعها من التآلف الإنساني في عزلة وانطواء.

وحتى إنتاجهم لا يكون هدفه تحقيق الذات بقدر ما يكون لأكل العيش والامتياز الشخصي والاستعلاء فلا يكون الدافع إلى إنتاجهم هو الكشف عن الحقيقة والبحث عن الجمال أيا كان مصدره. وانما سيكون الوصول إلى المركز الفكري أو الفني احتكارًا وامتلاكًا يذبون غيرهم عنه ويصدونهم بكل قواهم مهما يكن نصيب هذا الغير من العبقرية والنبوغ. ولا يكون بينهم التعاون الكامل الذي يجب أن يكون شعار من ينشد

الحق في كل مجالاته وإنما نرى بينهم من التنافس والتطاحن ما بين أبناء الحرفة الواحدة في أي طبقة من الطبقات.

وقد ينشأ في أمة من الأمم أبطال حقيقيون في كل ميدان من ميادين البطولة وعظماء في كل مجلى من مجالي العظمة وقد يعيشون في حياتهم على أحدث ما وصل إليه التقدم العلمي، ولكننا مع ذلك لا نطلق على هذه الأمه كلمة راقية أو مختصرة إلا تجاوزًا، لأن آية الرقي الحقيقي بين أمة وأمة في رأينا لا تتجلى إلا في المشاركة الوجدانية بين أفرادها.

نحن والعالم

إن من يراجع ما مضى من الصفحات حتى الآن فلا شك أنه سيعرف مقدماً موقفنا من العالم؛ فنحن الذين نقدس الإنسان إنما نقصد الجنس من حيث هو بلا قيد ولا حد.

ليس هناك حدود جغرافية تحول بين فيض الحب للإنسان في كل وطن من أوطانه ولا يمتاز عندنا أبيض من أسود ولا شرقي من غربي إلا بمقدار ما ركب فيه من زوايا ومواهب وحب لبني الإنسان والعمل على خيرهم جهد المستطاع.

وهذه القيم التي ندعو إليها في مجتمعنا الخاص وهذه المشكلات التي نريد أن ننحيها عن طريق مواطنينا ليعيشوا أحرارًا كرماء وليمارسوا الحياة الفاضلة السعيدة جهد الطاقة إنما نريد أن نصدرها بعد نجاح التجربة إلى الخارج، لتتم الروابط الطبيعية بين الإنسان وأخيه الإنسان التي فصمتها الظروف الصناعية من وطن ولغة ولون وغير ذلك من أسباب الخلاف.

ستكون الأرض كلها وطنًا واحدًا وسيشعر الإنسان الذي في المشرق أنه أخ وحبيب للذي في المغرب، وستكون الثروة الحقيقية لكل إنسان في العالم بمقدار ما يتبادله مع الجميع من حب وتقدير واحترام،

ونحن بذلك نسير مع الهدف الطبيعي وفق الإرادة الإلهية وخطوات التاريخ.

فالإنسان قد تحوَّل من العشيرة إلى القبيلة إلى مجموعة قبائل متجاورة ثم إلى أمة ثم اتحدت بعض الأمم المتجاورة في أمة واحدة وبقي الشوط الأخير وهو أن يتحد العالم كله في وطن واحد.

وقد تيسر له ذلك من الوجهة المادية كسهولة الاتصال التليفوني واللاسلكي والاتصال الشخصي بوسائل المواصلات السريعة التي تفوق سرعة الصوت فبقي أن يتحد من الناحية الروحية بالألفة التامة بين أفراده مع اختلاف ألوانهم وعقائدهم.

ولقد نادى بهذا كثير من المصلحين من قبل، ولكنهم لم يزيلوا العقبات من الطريق ولم يضعوا لها الحل العلمي فلا يمكن أن يتراجع عن تحقيق حلمه الكبر وهو أن تشمله جنسية الإنسانية وحدها أشرف وأسمى جنسية في الوجود.

فالرجل الأمريكي الذي ذهب إلى قاعة هيئة الأمم يوم أن كانت منعقدة في باريس وأقام فيها وادعى أنه مواطن عالمي وأذاع من هذا المكان أنه ينادي بوحدة العالم، لم يكن يستحق السخرية أو اتهامه بالجنون، فقد أرسل إليه الكثيرون من الحالمين والمخلصين في أنحاء العالم برقيات ورسائل تأييد.

كل ما فيه أنه حالم مخلص ضل الطريق الي تحقيق حلمه، والطريق الصحيح أن يتبنى الدعوة إلى توحيد العالم مجتمع لا فرد، مجتمع يقوم على الحب ويتمسك أفراده بشعائره ويمارسونه فيما بينهم ممارسة عملية. هذا المجتمع وحده هو القادر على تحقيق وحدة العالم.

ومصر يمكنها أن تقوم بهذا الدور الفريد لتتوج به تاريخها كله؛ فمصر بشهادة التاريخ أرست أول حجر في أساس الحضارة البشرية وعلى أرضها الخصبة قيم أول مجتمع متحضر وعنها أخذ العالم الأصول لكثير من العلوم والفنون؛ فمصر التي أنشأت الحضارة في التاريخ القديم يجب أن تعمل الآن على أن تنقذها من الدمار..

الأكيد إن لم يتحد العالم الآن على الحب عن طريق الحكومات التي تعتنق هذا المبدأ أو التنظيمات الأهلية علي وجه من الوجوه، هذه هي رسالة مصر في هذه الفترة الحرجة من التاريخ. وإن التجارب التي اعتصرنها والآلام العديدة التي عانتها وصقلت روحها لكفيلة أن تجعلها جديرة بحمل الرسالة العالمية عن طريق الروح بعد أن تمهدت السبيل أمامها عن طريق العلوم.

وحتي نكون جديرين بهذه الرسالة لا بد أن نمارس هذه القيم أولا ممارسة طبيعية من فيض إيماننا بأنفسنا وبالطريق الذي اخترناه، وبذلك سيجد العالم ألا مفر له من الاقتداء بنا لينقذ المدنية وينقذ نفسه أولًا من الخطر الماحق الذي يتهدده وأصبح ماثلا للعيان.

فأعصاب الطرفين اللذين يملكان القنابل الذرية والهيدروجينية صارت مشدودة كالوتر، وقد صور كاتب مدى الخطر الذي يتهدد العالم لو أن ضابطًا مجندًا واحدًا من الطرفين ألقى قنبلة مما في حوزته على المعسكر الآخر فيرد هذا الضربة بأشد منها، وتكون النتيجة ذلك أن يدمر العالم في أيام إن لم يكن في ساعات.

ولكننا نؤمن أن الله أبر بخليقته من أن يسلط عليها ذلك المجنون وأنه سيهديهم إلى الطريق المستقيم طريق الحب والتعاون والتألف لما فيه خير الجميع وسعادة الجميع.

فالبشرية الآن على استعداد أن تلبي هذه الدعوة لأول هاتف تعتقد فيه الصدق والإخلاص.

إن عصر الإنسان الذهبي لم يبدأ بعد، لا يزال طي الغيب، إنه هناك في المستقبل.

إنه ليس عصر العلم ولا تحطيم الذرة ولا القمر الصناعي، لا.. ليس هذا عصره الذهبي كما يتصوره بعضنا ولن يكون في طريق التقدم العلمي ولو كان ما وصلنا اليه مضروباً في آلاف المرات.

ولكنه سيكون عصر الروح، عصر الحب، عصر القيم العليا. هذا هو العصر المرتجى وغيره لن يكون..

"وبعد"

حينما اطمأنت نفسي بعد المراجعات الطويلة إلى هذه القيم على الهيئة المترابطة السابقة كان عليَّ أن أختار القالب الذي أعرضها فيه. وكان أمامي واحد من اثنين، إما أن أضعها في قالب فلسفي معقد بكل أصولها وتفريعاتها والدراسات التاريخية المقارنة للمذاهب السابقة ثم بعد ذلك أبسطها شيئًا فشيئ حتى تصل إلى المستوى العادي وإما أن أضعها في صورة مبسطة مفهومة لكل مستوى ثم نمضي بها صاعدين درجة بعد أخرى إلى التفريع والتشقيق.

وكان لا بد أن أختار الطريق الثاني لأنه هو الطريق الطبيعي.. فما نريده في هذه المرحلة عقيدة تمتزج بوجدان الجماعة وتشكل سلوكها أكثر مما هو فلسفة ترضي عقولا خاصة من الأفراد؛ فليست هذه فكرة للدراسة وكفى... وإنما هي قبل كل شيء دعوة إلى عمل وتطبيق. وهي بهذه الصورة تبدو واضحة المعالم متقاربة القواعد، وهي بهذا التركيز أقوى أثراً وأشد نفاذًا وأجمع لشتات الرأي من تصدع التشقيق وتميع التفريع.

وكانت مهمتي في الأيام الأخيرة محاولة التبسيط والتركيز فهمة الرائد ليست في الوصول إلى القمة وإنما في تعبيد الطريق إليها لكي يسهل وصول الآخرين.

وشيئ آخر وهو أن التوسع في الأصول الأولى قد يجعلها تنحرف عن اتجاهها الطبيعي في نهاية الأمر لأن فرق ملليمتر في نقطة الانطلاق عن الهدف يزداد اتساعاً كلما ازداد بعداً.

وشيئ ثالث هو أن المبادئ السائدة اليوم لا نكتشف أنها منحرفة أو هدامة إلا في الزوايا المظلمة التي تتلفع برداء الفلسفة المعقدة التي يصعب فهمها على الخاصة فضلا عن الأوساط من الناس. لهذا كان رائدي في هذا العرض، الدقة والوضوح بقدر الإمكان حتى لا يتيه القارئ أو يتبلبل خاطره بين التفريعات المعقدة التي تصلح للدرس دون التطبيق.

* * *

هل نحن في حاجة إلى مذهب جديد؟؟

إن من يتتبع تاريخ الإنسان خطوة خطوة منذ فجر التاريخ حتى اليوم سيروعه بلا شك هذا الحشد الهائل من النظم والمذاهب والقوانين على اختلافها. وسيرى بعضنا أن في تطور القوانين والنظم مع سير الزمن علامة سارة. وأنها كذلك على وجه واحد.. إنها تعتبر الطريق الصحيح

لتقدم الإنسان والعلامات الدالة على الأشواط التي قطعها من عمره المديد.

أما أن نعتبر القوانين والنظم قوة دافعة على التقدم والارتقاء فهذا ما نشك فيه أو الأحرى يجب أن يكون الآن محل بحث وتمحيص..

ولماذا الآن؟ لأننا اليوم والبشرية عامة على عتبة دور جديد من أدوار تقدمها وارتقائها ويتلفت المشفقون على المصير حولهم في لهفة باحثين عن نظام جديد يلائم الدور الجديد الذي يوشك أن يبزغ ونحن نخشى أن يكون هذا منتهى أمل الباحثين والمتلهفين.

إننا نستطيع أن نقول ونحن نجزم ونؤكد إن الدور الذي سنقبل عليه يختلف اختلافاً تاما عن كل الأدوار التي سبقت في تاريخ الإنسان. وهو كذلك يحتاج دعوة جديدة. جديدة في كل شيء عما سلف من الدعوات.

إنه لا يصلح له التقليد ولا التطوير ولا الترقيع لأي نظام سابق وإنما يحتاج إلى إلهام ويقين وجرأة ماضية نافذة منقطعة النظير. إنه يحتاج إلى رجل أوتي الصفاء النفسي والاتصال بسر الحياة حتى لكأنه يفكر بتفكيرها ويحس بإحساسها. أما هؤلاء الذين يودون الخلاص على يد مذهب جديد فإنا نصارحهم أنهم يؤملون فيما لا طائل تحته ولا يغني عنهم شيئاً. فلتوفر الجهد في هذا السبيل ولنتجه إلى ما يفيد.

إلام نتجه إذاً.؟ إلى الإنسان ذاته.. نعم إلى الإنسان لا سواه.. فهمتنا اليوم ليست في استحداث نظام جديد وإنما في خلق نظرة الإنسان الجديد للقوانين والنظم والحياة بكل ضروبها وألوانها. وعن طريق الحب نجد الانسان ونجد العلاج أيضاً...

ويغنينا لتوضيح رأينا في هذا المقام بعض فقرات من رسالة بعثت بها منذ ثلاثة أعوام إلى الأديب السوداني الأستاذ مصطفي حامد الأمين حين طلب مني أن أبعث إليه برأيي في كتابة "البوذية" جاء فيها:

"وخلاصة ما اهتديت إليه بفطرتي ودراساتي أن الحب هو القانون الأعظم الذي يجب أن ينتظم سير المجتمع والبشرية كافة وأنه وحده المصدر الأسمى والأوحد الذي تتفرع منه القيم والتعاليم والعقائد. بل القوانين ذاتها يجب أن تكون مقيدة ومشدودة إلى هذا المصدر. وليس الآن بسبيل شرح فكرتي لك بإسهاب فذلك مجاله رسالة أخرى أو رسالات أخر.

إن شخصية كبوذا يجب أن تكون الشغل الشاغل لكثير من الباحثين والمفكرين خاصة في هذه الأيام يجب أن تسلط عليها الأضواء الكاشفة من كل جانب لما فيها من التعاليم السامية المبتكرة المتعشقة للحرية ووضع الإنسان في مكانه الطبيعي كسيد لحياته سيادة مطلقة لا يحدها إلا شعوره بواجبه وبإنسانيته التي يجب أن تترفع عن الصغائر...

لست أدري إلى أي ناحية من نواحي العظمة المتعددة في بوذا أود أن أشير، ولكن لو لم يقل إلا هذه الكلمة "إن البوذي ليس عبداً لبوذا ولا لأي كتاب ولا يضحي بحريته الفكرية بصيروته تلميذاً لبوذا"... لو لم يقل إلا هذه الكلمة لأحللته المنزلة العليا من التقدير والإكبار..

إن هذا الركام الهائل من المواريث والمعتقدات الخرافية لفي حاجة إلى أكثر من بوذا واحد. فقد تحجرت الفضائل والمثل حتى صارت قيوداً ثم تراكمت وانتشرت حتى أصبحت متاهات ومجاهل ضحيتها شيء واحد هو "الفرد المسكين".

لقد ضاع الإنسان تحت هذا الركام المتراكم من المواريث. وتتلخص مهمة المصلح اليوم في البحث عن هذا الإنسان الضائع وفي الطريق إلى العثور عليه يجب أن نضحي بكل شيء وأن يتخطى كل الحدود والسدود "..

* * *

نعم... نحن اليوم لسنا في حاجة إلى أوامر جديدة ونواه جديدة وإنما حاجتنا إلى التفاهم العميق والرغبة الصادقة المخلصة والحب والإخاء ممن الجميع حكاماً ومحكومين.

بقي الآن السؤال الأخير: كيف السبيل إلى تطبيق هذه القيم تطبيقاً علميا؟

والجواب أن تؤلف منذ الآن رابطة يطلق عليها (رابطة الجزاء الذاتي) ينتسب إليها المؤمنون بهذه القيم ويقومون بالدعوة لها بالقول والعمل وبذلك تقوم بعملية امتصاص لبقية أفراد المجتمع.

وحينما تصير قيماً اجتماعية يؤمن بها المجتمع وينفذها أول قطاع كبير منه تبدأ هذه الرابطة فتبشر بها على نحو عالمي وهو واجب لا يقل لزوماً عن التبشير بها في مجتمعنا الخاص.

فكما أن الإنسان الفاضل لا يستطيع أن يمارس فضائله في مجتمع منحل بل تظل في حالة كمون يشقى بها إذ لا يستطيع التنفيس عنها فهكذا مجتمعنا بالنسبة للعالم لا يهنأ بهذه القيم أو يسعد بها ما دام العالم يعيش في ظل المبادئ الحالية. لأن العلم الحديث ربط الأرض كلها برباط مادي يجعل من العسير على أمة ألا تتأثر بما يجري خارج حدودها.

ونحن نؤمن أن العالم الآن على استعداد لأن يتقبل هذه الدعوى ويباركها بإخلاص عظيم.

وهو أمام تجربة فاصلة؛ فدعوة الحب والإخاء والتعاطف الإنساني في ناحية، وفي ناحية أخرى ما استحدثه العلم من الأدوات الفتاكة المدمرة التي لو أطلقت من مكانها فلن تذر على الأرض دياراً.

وسنرى.. هل بلغ الإنسان رشده أم لا يزال في دور الطفولة لا يستطيع أن يفرق بين الجمر والتمر... وهل يجذبه ظلام المادة أم صفاء الروح؟. الجواب عند علام الغيوب.

المحور الحق "الإيمان"

هذا هو المحور

من المؤلم المؤسف أن نجد المشكلة الاقتصادية تحتل مركز الصدارة من مشاكلنا المحلية والعالمية على السواء، بل نرى بعض الدول قد أدمجت مشاكلها السياسية والاجتماعية والأخلاقية في مشكلة واحدة هي مشكلة الاقتصاد وطبعت كل تصرفاتها بطابع اقتصادي.

ولذلك علينا الآن قبل أن ننهي هذا البحث أن نعرض لوجهة النظر هذه وأن نلقي الضوء عليها ونضعها في مكانها الحق وفاقاً لما قلته في المقدمة من أن العالم لم يواجه محنة في تاريخه أشد مما يواجهها اليوم من أثر الفلسفات المادية التي أصبحت تروج وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً.

ولا أود – وإن كنت أمام بحث نظري – أن أخرج إلى الشروح والتفاصيل والتعرض لوجهات النظر الأخرى بالرد. فليس المقصود وعرض وجهات النظر والرد عليها؛ فهذا لا يتسع له المقام، وإنما هي عرض وجهة نظرنا نحن من خلال تعرضنا لهذه الفلسفات.

وقد طلب مني بعض معارفي ألا أتعرض لمسألة الإيمان هنا ما دمت قد أردت أن يكون منهجاً علمياً عالماً للجميع بعيداً عن اللجاجات والخلافات التي تجعل الكثير ممن يسيئون الظن بالأديان لا يقبلون عليه أو يقرأونه وفي نفوسهم بعض الريب والحذر.

ولكني عزمت على أن أنشر رأيي كاملا ومنهجي واضحاً حتى أتهم بعد ذلك لو أبديت بقية رأيي أنني اقصد الملق والنفاق.

* * *

وعلى أية حال فهذا الفصل دراسي نظري يعتبر مستقلا عن المنهج العلمي الذي وضحته فيما سبق.. ولا حرج على من يخالفني فيه أن نتفق معاً على تنفيذ المنهج العلمي. أما مسألة العقيدة الداخلية فلا سلطان لأحد عليها ولا تقطع ما بيننا وبين الجميع من أواصر الود والتعاون.

ورأيي الذي اهتديت إليه بعد شك طويل وتأمل أطول أن الايمان بالله يجب أن يكون محور حياتنا الجديدة بعد تطبيق كل القيم التي قدمناها.. فالإيمان بالله فوق أنه فطره إنسانية عريقة في الجنس البشري وفي أعماق النفس الإنسانية إلا أنه ضرورة عقلية كذلك. وسبيلنا إلى إثبات هذا هو المنطق العقلي وحده فلا ضغط ولا إكراه وسنحقق بهذا أول تجربة لمبدأ (الحق من طريق الإقناع) في هذا الموضوع الضخم العميق.

وقبل أن نبدأ سنجد أمامنا هذا السؤال: كيف نقطع أن الإيمان بالله فطرة إنسانية وضرورة عقلية مع ما نراه من انصراف الكثيرين عن الذين ومن بينهم فلاسفة كبار وعقول نشهد لها بالدقة والعمق والحصافة؟ وبم يعلل عزوف نفر كبير من أصحاب الهمم العالية والنفوس الكبيرة. بل الأخلاق المستقلة عن الأديان؟ إن العالم لم يصل إلى درجة من العلم والمعرفة والثقافة أرفع مما هو الآن، ومع ذلك لم تواجه الأديان محنة وهجوماً أشد مما تواجهه هذه الأيام.

وجوابي أنني سأفصل ما أجملته في المقدمة من أن الفلسفة المادية ترتكز على دعامتين مهمتين هما: الإيمان المغرور بالعلم والاستغلال بنوعيه المادي والمعنوي. أما الإيمان المغرور بالعلم فهو قسمان قسم يبحث في نشأة الأديان ويعللها، وقسم زلزل إيمانه كشوف العلم إلى درجة تقارب الخيال. القسم الأول يتحدث بلا سند علمي وإنما هو استنتاج سماه علما ولو كان علماً حقيقياً له حصانة قوانين العلم لما اختلف علماء الاجتماع مع علماء النفس وعلماء التشريح مع علماء التاريخ. فمنهم من يروي لك علمه في نشأة الدين على خوف الإنسان الأول من الكون والعجز عن تفصيل ظواهره والرغبة في التقرب إليه، ومنهم من يصور نشأته بالأحلام التي رآها الإنسان الأول لبعض ذوي قرباه من الأموات فخيل إليه أنهم أحياء في عالم آخر فأكبر شأنهم ومجدهم وانتقل بعد هذا إلى تأليههم بل تطرف بعضهم إلى حد القول: إن الإنسان لما ابتكر اللغة وأطلق أسماءهم على الظواهر الكونية الكبرى كالشمس والقمر، ورآها تتحرك شرقاً وغرباً وجعل يقول أشرقت الشمس

وغرب القمر اعتقد أن لها روحاً تحركها إلى آخر هذا التخبط الذي لا يؤيده دليل قوي...

دع عنك ما يقوله علماء النفس من شعور الانسان بالضعف أمام قوى الكون المجهولة ولما كان يحتمي بأبيه وهو صغير فإنه لما يكبر يجد هذه القوى لا تزال مجهولة ويحار في تفسيرها وهو كبير أيضاً فيحس بحاجته إلى الحماية وإلى قوة ينشدها كقوة أبيه في المخاوف أو عندما تتعقد أمامه سبل الحياة فينشأ عنده وهم بإله قادر يكون له بمثابة أب إلا أنه لا يدري أن هذا وهم أو هو لا يريد أن يكشف هذا الوهم حتى لا تضطرب حياته.

وكذلك نظرية الطوطم وهو شعار القبيلة البدائية التي يرسمها أفرادها بالوشم على أجسادهم لاعتقادهم أن هذا يجلب لهم الحظ ثم بعد ذلك يرفعونه شيئاً فشيئاً على مدى الأجيال إلى مرتبة الألوهية، وغير ذلك كثير من هذه الاستنتاجات التي تقوم على الفروض لا غير. ولا تتفق فيما بينها على تعليل واحد ولسنا ننفي أن كل هذه الفروض حدثت أو يمكن أن تحدث وإنما تعليلنا لها هو أن التدين فطرة غريقة في الجنس البشري وفي أعماق النفس الإنسانية كما بينَّا. ولم تكن هذه الاستجابات الساذجة إلا تمهيداً لنشوء الاستعدادات التامة لإدراك معنى الدين الصحيح.

* * *

وأما القسم الثاني فراح يتيه بما وصلت إليه الإنسانية من كشوف ومخترعات ومن انتصار على حل ألغاز الطبيعة التي كانت سراً مغلقاً على الأقدمين؛ فأعرضوا عن كل ما لا يدخل تحت الميكروسكوب أو المعمل أو المعادلات التي اكتشفها ونظمها العلم الحديث.

ونحن بدورنا نسأل ماذا صنع الإنسان بعد هذا الرقي العلمي ما مبلغ جهده ما نهاية ابتكاراته؟.. إن مبلغ جهده في هذا السبيل أنه اكتشف أنظمة موجودة ولم يخلقها. وكلما ازداد الإنسان علماً وكشفاً لهذه القوانين وجد ما هو أدق وأعجب مما وصل إليه. فالكهرباء لم يخلقها أديسون وتابعوه وإنما كل جهدهم أنهم اكتشفوا قوانينها، أما هي فموجودة في هذا الرحاب قبل ملايين السنين وقس على ذلك كل ما وصل إليه الإنسان وما سيصل إليه من كشوف.

فلا يتبجح الإنسان بما وصل إليه من علم ويدعي أنه اكتشف قانون الحياة وسر الوجود فمبلغ علمه مما لم يعلم كقطرة من بحر أو ذرة من فضاء، وهذا بشهادة العلم نفسه.

والحقائق العلمية والتاريخية لا تعطينا الدليل القاطع على أنها تسير بذاتها ولذاتها ولا يستطيع أحد أن يجزم بذلك.

فإذا كانت كل عظمة الإنسان وعبقريته لا تتعدى دائرة اكتشاف ما هو موجود بل شيئاً ضئيلا جدا مما هو فيدعي بغروره أنه إله وأنه سيصل إلى كشف كل شيء ولا عيب أنه الآن في الطريق.

ونحن لسنا ممن ينكر على الإنسان عظمته بل لعل أحداً لم يشرف عليها فيراها بعين البصيرة حافلة بآيات الإعجاز مليئة بالأسرار كما نراها، وليست هذه الدعوى التي فصلناها سابقا إلا للفت نظره إلى تلك الكنوز الهائلة بداخل النفس التي شغل عنها بالكنوز الخارجية. ولكنها ليست في موقف المقارنة بين عظمته وعظمة الله أو في موقف المقابلة بين عظمة الخالق وعظمة المخلوق.

لنفرض أنه وصل إلى كل شيء واكتشف كل الأسرار الموجودة فسيبقى شيء وراء تفوقه وراء نبوغه وهو خلق ما لم يوجد، وهذا ما لا يستطيع.

(إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب).

ومع ذلك فنحن نسأل:

هل يستطيع الإنسان أن يدبر الكون بطريقة أعظم مما هو عيله الآن؟.. هل يمكن أن يبتكر نظاماً جديدة لدورة الليل والنهار وشروق الشمس وغروبها وتعديل محور الأرض أو موقعها على هيئة أكثر دقة مما هي عليه الآن أو وضعها في مكان أنسب مما هي فيه بالنسبة للمجموعة الشمسية؟

ومالنا نبحث في هذا كله، لنعد إلى الانسان نفسه.. من سواه على هذه الصورة المعجزة جسداً وروحاً فالإنسان أعجب ما صنع الله وأبدع مخلوقاته، من ركب فيه هذا العقل الطلعة الذي لا يستقر ولا يهدأ، ولا يكف عن الشغف بكل جديد؟ من ركب فيه هذه العواطف السامية؟ من أودع فيه هذه الروح؟ من زوده بإنسانيته المتكاملة التي أحالت الوجود إلى كل هذا الجمال والنظام؟ هذا الإنسان بكل عظمته وإعجازه هل جاء أيضاً عفو الصدفة أو وفق قوانين لا منظم لها؟ فالذين تشيعوا للإنسان حتى ألهوه.. هل يرضيهم أن يكون وليد صدفة أو نتاج مادة؟. فمن يؤلهون المادة عن علم أو عن غير علم إن ينظروا إلى الإنسان نفسه لا أن يتخبطوا في التفاصيل من معميات التاريخ التي ليس لها مستند علمي صحيح والذين لا يؤمنون إلا بما يرونه ويحسونه أو من خلال المعادلات التي تجرى في معاملهم هم أولى الناس بالتبشير بوجود الله لأنهم أكثر اطلاعاً على أسرار الكون؛ فالعلم لا ينقض الإيمان بل يسانده، إن لم يكن أقوى سند له، وكثير من العلماء الأفذاذ كان العلم الذي يمارسونه من أقوى الأسباب التي هدتهم إلى الله والإيمان به كأقوى ما يكون الإيمان؛ فمسألة إثبات وجود الله قررها العلم ببحوثه وهو يتخطى طورًا من بعد طور فيجد نظاماً إلى نظام أعجب وأكثر دقة وإحكامًا، وقررته الملاحظة الدقيقة الواعية لكل ما في الكون من أسرار معجزة وعلى رأسها الإنسان، ولا يستساغ أن يكون هذا النظام الذي يشمل كل ما في الكون من ذرات وأفلاك وأجرام وينتظم كل ما في

الوجود على نسق واحد، أو جاء من وحي الصدفة أو من غير تدبير من إله حكيم قدير.

* * *

أما الاستغلال بنوعية: المادي، والمعنوي وهو يتلخص في سلب القوت والفرص المتكافئة للرزق أو سلب الحرية باسم الأعذار الكثيرة التي يطلقها الطغاة كالحرص على النظام أو مصلحة الدولة العليا وغيرها أو هو بمعني أوضح فساد النظام الاقتصادي أو فساد النظام السياسي، فأحد الأسباب المهمة التي ترتكز عليها الفلسفة المادية لتبرر قيامها...

* * *

ذلك أن المتدين يشعر عادة بصلة نفسية بالله القوي القادر، وحينما يشتد عليه الظلم ويطول مداه ويتضرع إلى الله أن ينقذه، ومع ذلك لا ينزاح عنه ظلم الظالمين، يبدأ عقله يتشكك في وجود الله لأن الله لا يرضى لعبادة الظلم، لاعتقاده أنه ما دام متمسكاً بالله فإن الله يتولى عنه رد الظلم ويساعد على ذلك أن يبدأ الصراع بين الظالم والمظلوم فيتخلى كلاهما عن الرحمة وما يمثلها من الشمائل الإنسانية كل في سبيل وجهته؛ فيكونون بذلك في درجة هي إلى الحيوانية أقرب. وسيصرفهم الصراع عن إشباع العقل بالثقافة وإشباع الوعي بالتأمل وإشباع العواطف السامية بالتودد فيكون ذلك جميعه عوناً للفلسفة المادية التي تنادي بخرافة الإيمان بالله.

ولـذلك فسـيكون هـذا المـنهج العلمـي الـذي قـدمناه لتخلـيص الإنسان من الاستغلال الاقتصادي والاستبداد السياسي من أهم الدوافع التي تعيد الفرد إلى حظيرة الإيمان بالله، ولإشراق نوره عليهم من جديد.

وهنـا سـبب ثالـث نـراه لا يقـل خطـورة عـن سـابقيه، وهـو تصـرف رجـال الـدين وسـلوكهم فـي الحيـاة وجوابـه أن الخلـط بـين مبـادئ الـدين نفسه وبين سلوك رجال الدين لا مبر له ولا ذنب للدين فيه؛ فالدين قد حض على مكارم الأخلاق ووعد العاملين بها بالجنة. وتوعد المخالفين بالنار في الدار الباقية. فإذا استهان بعض رجاله بهذه الأوامر والنواهي فلا يتخذ ذلك حجة على الدين نفسه فهم بشر كسائر البشر، وكونهم يقولون ما لا يفعلون لا يجعلنا نقللهم في أعمالهم ونضرب صفحاً عن التعاليم السامية التي يبشرون بها. كما أن هؤلاء ليسوا أصحاب دعوة وإنمـا هـم محترفـون أي أنهـم يـؤدون عملهـم الـوعظي، وهـو وظيفـة لا رسالة.. وقد لفت نظرنا القرآن لأمثال هؤلاء بقوله "يا أيها الذين أمنوا لم تقولون ما لا تفعلون. كبر مقتاً عند الله أن تقولوا ما لا تفعلون".

وهناك شيء آخر وهو أن بعض الناس يظن أن رجل الدين يجب أن يكـون كـاملا كمـالا تامـا مـن جميـع نواحيـه وأن يكـون فاضـلا فـي كـل تصرفاته جميعها، ولكن الحقيقة أن الفضائل أكبر من أن يحيط بها فرد واحـد مهمـا يكـن ذلـك الفـرد مـن النبـل والسـمو ونقـاء الفطـرة. كمـا أن الفضـائل درجـات يعلـو بعضـها بعضـاً فلـو اتصـف رجـل الـدين ببعضـها وتخلى عن البعض لا ينظر الناس عادة إلى فضائله التي يتحلى بها، وإنما

يركزون كل أنظارهم على نقائصه أو ما يخيل إليهم أنها نقائص على حين لا تكون هي كذلك، بل قد تكون وسيلة إلى فضيلة أعلى.

وانا أعترف أن من بين الأسباب المهمة التي جعلتني قبل ذلك أتشكك في الدين إنما كان مواقف بعض رجاله نظراً لجمودهم العقلي أو لبعض تصرفاتهم. وحينما حالت القيم الدينية في نفسي لم أبتعد عن الفضائل الدينية وإنما رسخت في نفسي كقيم خلقية لا غير. أؤديها كإنسان يحترم إنسانيته حتى ولو لم يترتب عليها الجزاء الأخروي الموعود. وكنت أعتقد أن صلتي بالدين هي صلة الجزاء وحده.

ولذلك لما رأيت أني لا أستطيع أن أتخلى عن فضائلي حتى ولو لم يكن هناك وازع ديني رأيت أني قد نفضت يدي من الدين نهائياً إلى أن طاف بذهني هذا السؤال الخالد: "من خلقني؟" من أودع فيَّ هذه القوة المعنوية كالعقل والخلق والعاطفة؟ من نظم الكون هذا التنظيم المحكم؟

ولم يكن جواباً لهذا السؤال الأبدي إلا أن يكون الله القوي المقتدر واجب الوجود الكامل في كل شيء وليس كمثله شيء هو الذي خلقني ونظم هذا الكون الهائل حتى وجدتني أود الرجوع ثانية إلى هذا المرفأ الأمين.

* * *

والإيمان بالله يستتبع الإيمان بحياة أخرى بعد الموت، ونستطيع بالبرهان العقلي وحده كذلك أن ندلل عليها على الوجه الآتي:

لو فرض أننا سألنا خلية حية إبان تلاقحها – إن كان لها عقل يسأل – هل في الإمكان أنك ستكونين بعد شهور جنيناً إنسانياً متكامل الخلقة؛ لكان الجواب بالدهشة والاستغراب، ولو سألنا الجنين في بطن أمه – ولنفرض أن له وعياً يدرك – هل تظن أن هناك عالماً أوسع من هذا العالم الذي يوجد فيه؟ لأجاب مؤكداً: أنه لا يمكن أن يكون هناك عالم أفضل. ودليلنا على هذا أنه حينما يغادر مقره يستقبل هذا الوجود الرحب بالبكاء.

فهذه العناية الخلقية التي حدبت على الخلية الأولى في الأصلاب والترائب ونمته جنيناً في بطن أمه من باب أولى أن ترعاه بعد أن يبلغ هذا المستوى العالي من النمو والاهتمام، ولذلك فنحن نسير مع المنطق الطبيعي إن آمنا أن بعد هذه الحياة حياة أخرى أبعد فرقاً مما بين الخلية الأولى والجنين في بطن أمه، وأوسع مدى مما بين الجنين والإنسان في عنفوان رجولته وشبابه. ولا بد أن يكون أكمل من هذا العالم المليء بالمتاعب والحسرات والآلام.

وقد يقول قائل: إن النبات والحيوان يشاركنا في النشأة والنمو ولكنه يفنى.. وهنا يجب أن نفرق في هذا المجال بين الوسائل والغايات؛ فالنبات والحيوان وسيلة الإنسان لحياته على هذه الأرض، أما الإنسان

الذي ركب الله فيه هذه الروح والخلق والعقل فهو غاية في ذاته لهذه الخصائص الإنسانية وإلا فلأي شيء يكون الإنسان وسيلة؟.. فإذا أدركنا أنه لا يمكن أن يكون وسيلة، ثم نفينا بعد ذلك أن يكون غاية فإن وجوده سيكون عبثاً.. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

ومع إيماننا الكامل بالله وملائكته وكتبه ورسله والحياة الأخرى إيمانا قائماً على العقل والمنطق إلا أننا نعرض هذا الرأي ولا نفرضه فإكبارنا للعقل جعلنا نضع في صلب المنهج العملي مبدأ الحق من طريق الإقناع؛ فترابط العقل والخلق والإيمان هو الذي يصعد بالإنسان إلى قمة السمو والسعادة بل إن إنسانيته الحقيقية لا تتحدد إلا بترابط هذه القوى الثلاث.

فإيمان وخلق بغير عقل   لا قيمة لهما بل لا يتصوران أصلاً

وعقل وإيمان بغير خلق   لا يفيدان المجموع فلا قيمة لهما كذلك.

وخلق وعقل بغير إيمان   لا يسموان بالإنسان إلى المدى المستطاع

إذا فقيمة هذه القوى أن تترابط لتؤدي دورها معاً حتى تحقق الكمال المنشود، والعالم اليوم ينقسم إلة طوائف ثلاث:

١- أخلاقيون، يؤمنون بالله وبالأديان...
٢- أخلاقيون لا ينتسبون إلى دين...

٣- لا أخلاقيون، سواء منهم من ينتسب إلى دين، ومن لا ينتسب إلى دين.

ومقصدنا الآن أن نحقق وحدة العالم على أسس خلقية؛ ولذلك فمن واجب الأخلاقيين أصحاب الطائفتين الأوليين أن يتعاونوا معاً لبناء هذا العالم المأمول سواء منهم من آمن بالله أو من لم يؤمن ما دام كلاهما يقدس الغاية الأخلاقية.

ولا يكون سوء ظن الأخلاقيين بالمؤمنين بالذي يشككهم في جدوى هذا التعاون؛ فقيمة الأخلاق عند المؤمنين أنها لا تعمل على إسعاد المجتمع فحسب، ولكنها قبل ذلك تقرب الإنسان إلى الله، والله مطلع على الضمائر، وفي هذا ضمان أكيد ألا نتخلى عنها.

وكذلك لا يكون عدم إيمان الأخلاقيين بالله سبباً في فصم عرى التعاون عند المؤمنين فإن الأخلاقي الذي يحترم إنسانيته، ويترفع عن الصغائر والنقائص بدافع داخلي دون انتظار جزاء لا ينقص من قدره في دائرة النشاط الجماعي أن يؤدي دوره كاملا. وقد يكون في تحلي المؤمنين بالأخلاق الكريمة وتعاونهم معه ما يجعله يعود إلى منطقة الإيمان. والله تعالى يقول:

"لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي"..

وسـتكون أولـى ثمـرات هـذا التعـاون أن يضـيق الخنـاق علـى المنحلين ومن يتبجحون بالإلحاد ليداروا نقائصهم باسم الثقافة أو حرية الفكر أو التقدمية.

* * *

وهنا يعترضنا سؤال آخر.. لقد أسهبت في الحديث عن الإيمان، وتركت المشكلة الاقتصادية جانباً، مع أنك افتتحت هذا الفصل بأن المشكلة الاقتصادية هي المشكلة الرئيسية في عالم اليوم عند الجميع، والجواب أني بعد هذا الذي بينت لا أرى انها مشكلة بالمرة. إني أعتقد أن هذه المشكلة ما كانت لتوجد أصلا إلا لما تخلينا عن القيم المعنوية.

وهنا يعترضنا بقية السؤال الأول:

كيـف تقولـوا بتحقيـق القـيم المعنويـة قبـل أن تحـل المشـكلة الاقتصـادية؟.. إن هـذا كمـن يضـع العربـة أمـام الحصـان؛ فالجـائع لا يستطيع أن يتمتع بالإيمان والخلق والعقل إذ الجوع ينفي كل هذا فمن واجب الدولة أن تقف كل جهودها على حل المشكلة الاقتصادية حتى يوفر المستوى المادي المناسب للجميع، وبعد ذلك يمكننا أن نتطلع إلـى الآفـاق المعنويـة، أي أن مطالـب الجسـم أولا ثـم مطالـب الـروح.. والسؤال وجيه لا شك في ذلك، وجوابه:

إننا لا نمانع أن تنفق الدولة بعض جهودها لعلاج المشكلة الاقتصادية، ولكن ما نمانع فيه هو أن نستنفد كل جهودها. على أن دعوتنا إلي تطبيق هذه القيم موجهة إلى الجماعة أولا لا إلى الدولة. كما أننا نطالب هؤلاء الذين شاء لهم الحظ العاثر أن يوجدوا في السفح الاقتصادي والعلمي ليشاركوا في البناء، فهؤلاء لا يملكون ما يشاركون به، ويكفينا منهم الموقف السلبي والنية الطيبة وغيرتهم الظاهرية على الدين والأخلاق، ولكن دعوتنا موجهة بالذات إلى هؤلاء الذين أوتوا بسطة في العلم والمال أن يقوموا بواجبهم لا أن يقفوا موقف المتفرج بلا مبالاة، وقد توفر لهم كل شيء فتقصيرهم خيانة لأنفسهم ولإنسانيتهم، ولا يعقل أن نقول لأمثال هؤلاء انتظروا حتى تفرغ الدولة من حل مشاكلها الاقتصادية، وبعد ذلك اعملوا على تطبيق المبادئ الخلقية.

فالاشتراكية الاقتصادية ليست حلاً له العقد كما يتصورون، وإنما الاشتراكية الخلقية هي التي يمكن أن تنهض بهذا الدور عن جدارة ويقين. ومفرق الطريق بيننا وبينهم أنهم يعملون بكل قواهم ليصل من هم فوق في المستوى الاقتصادي إلى تحت. أما نحن فنعمل بكل قوانا ليصل من هم تحت في المستوى الأخلاقي إلى فوق..

وهم يحاربون النقائص النفسية بإلغاء أسبابها، ونحن نحاربها بالجهاد والمثابرة للتفوق عليها، ونرى أن الحياة لو مضت هكذا بلا جهاد للروح فإن يوماً واحداً يغني عن ملايين السنين.

وهـم يريـدون أيـة حيـاة مهمـا تكـن هابطـة مـا دامـت فـي ظـل المساواة. ونحن نريدها حياة سامية عزيزة جديرة بكل ما راح في سبيلها من جهود الأنبياء والمصلحين، وما ضاع من أرواح الشهداء والضحايا على مر العصور في كل مكان.

وما دمت قد أعلنت موقفي صريحاً من الإيمان فسأستشهد بسورة قصيرة من القرآن الكريم هي سورة العصر يقول الله تعالى: "والعصر إن الانسان لفي خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر" وهنا نجد أن هذه السورة القصيرة قد جمعت كل مقومات الإنسانية الحقيقية في أبلغ صورة وأوجز عبارة؛ فالإيمان وهو الفضيلة الإنسانية العليا، والعمل الصالح أي ما مجاله الخلق... والتواصي بالحق أي ما مجاله العقل...

والتواصي بالصبر في سبيل خير الجميع، وهو هنا يعتبر مرادفاً لكلمة الحب لأنه صبر في سبيل الجماعة فالصبر نوعان: صبر فردي كالصبر على الطاعة والصبر على المصيبة والصبر على المعصية... وصبر جماعي وهو أن تتحمل الإيذاء في سبيل الحق والخير للجميع، وهو هنا يفسر بمعنى الحب لأنه لا شيء يحملك على احتمال الأذى في سبيل الغير إلا الحب.

فما أعجب أن نجد أنفسنا في سورة واحدة صغيرة لا تتعدى سطرين اثنين أمام كل الفضائل التي نادينا بها في منهجنا العملي وزادت

عليه فضيلة الإيمان وليس هذا وحده، ولكنها تشير كذلك إلى ناحية علمية سامية يجب علينا إبرازها.

فلم تكن الصياغة للمفرد كأن تقول والعصر إن الإنسان لفي خسر إلا الذي آمن وعمل صالحاً وتمسك بالحق والصبر، إذ لو كانت الصياغة هكذا لحددت صفات الإنسان المثالي، ولم تحدد صفات الحياة المثالية؛ فالإنسان الذي يتصف بكل الفضائل السابقة لا يكون مثالياً حقاً إلا في مجتمع على شاكلته يتحلى بهذه الفضائل، وإلا فستكون فضائله أكبر جناية عليه، لأن الفرد الذي يود أن يعيش فاضلا في مجتمع غير فاضل سيتهم هو نفسه بأنه غير فاضل ولا يتركه المجتمع المزور الزائف يمضي في طريقه فيترصده بالإيذاء والتحقير والابتعاد عنه وتسفيه رأيه فلا يكون أمامه الا أحد أمرين: إما أن يتخلى عن مثله ويندمج مع الجماعة، وإما أن يظل متمسكاً بها أميناً عليها، فلا يشارك مجتمعه في فكر أو شعور، ولا يسأم كذلك من إيذائهم وتكون نتيجة هذا كله أن يحس بالغربة الدائمة فيزلزل عقله ويصيبه الخبال.

فالأخلاق الجماعية أو المثل العليا التي تقدسها الجماعة هي التي تصوغ الأفراد وتشكل سلوكهم؛ فإن كانت صالحة صلح الفرد، وإن كانت فاسدة فسد تبعاً لها. ومن ها نلمح أثر التربية التي تقرها الجماعة الصالحة؛ فالدوافع قوة عمياء لا تؤدي عملها على أفضل وجه إلا بالتربية الصالحة وما تواضع عليه المجتمع الفاضل من نظم وقيم.. ولنتصور مثلا دافع حب الاستطلاع كيف خطره إن لم يدرب الناشئ منذ حداثته على

البحث المنطقي عن الحقائق العلمية والفلسفية، وعلى النظرة المستنيرة إلى حقائق الوجود عن طريق محاكاة من هم أكبر منه وأقدر، وما خلفه السابقون من تراث علمي وفني وأدبي، وإلا فستنصرف طاقته إلى الكشف عن نقائص الناس وتتبع عوراتهم وما شاكل ذلك.

فالتربية الصالحة والبيئة الفاضلة تشكلان الدافع وتسموان به إلى أعلى قدر مستطاع من الإنسانية، وكذلك غريزة الجنس ينظمها المجتمع بالزواج والاقتناء ويكيفها النظام الاقتصادي وهكذا..

فالفرد يولد عادة بفطرة بريئة، وما يلوث هذه الفطرة إلا سوء التربية أو انحلال البيئة، وهنا نجد أنفسنا أمام فكرة مسئولية الجماعة التي طالما تشدق بها أنصار الماركسية وظنوا حينما توصلوا إليها أنهم وضعوا أيديهم على العلة الرئيسية، التي لم يسبقهم إليها سابق مع أننا رأينا الآن القرآن الكريم صاغها كاملة منذ أربعة عشر قرناً.

ولكن ما أبعد الفرق بين المنهج السامي الذي رسمه القرآن للجماعة والغاية النبيلة التي دعا إليها وحددها عن طريق القوى المعنوية، وبين الأسلوب الوضيع والغاية المسفة التي تطلع إليها الماديون الاقتصاديون، فالمشكلة الاقتصادية عقدناها نحن بأيدينا بتخلينا عن الفضائل العليا، وبعد ذلك رحنا نلتمس لها الحلول كمن يصنعون أصناماً ثم يخرون لها ساجدين.

ولا شيء يجعلنا نستمسك بعروة الإيمان أكثر من أن نراه خاصية إنسانية، فالحيوان يشاركنا في الصفات الإنسانية العليا كالإدراك والخلق والإحساس بالجمال، وإن كانت على نسب محدودة أو ضئيلة إلا أنها موجودة فعلا فلا يمكن إنكارها. أما الشيء الذي هو إنساني محض فهو التدين. ولذلك فإننا نرى أحدث تعريف للإنسان أنه حيوان متدين، بدل أن يقال حيوان ناطق أو ضاحك. وإن كنا نرفض هذا التعريف هنا.. لأنه ما دام التدين خاصاً به وقفاً عليه فإنا نطلق عليه كائناً متديناً تمييزاً له عن وصفه بأنه حيوان وتكريماً لإنسانيته.

* * *

نعتقد الآن أن هدفنا قد أصبح واضحاً تماماً، وهو العمل على إيجاد حياة مثالية عن طريق مجتمع يطبق القيم التي قدمناها في منهجنا العلمي على أن يكون الإيمان بالله هو المحور المختار.

وتصميمنا على أن يطبقها المجتمع كله لا بضعة أفراد منه هو إيماننا أنه كلما زاد عدد المنفذين لها قلت مشقتها، فإذا طبقها المجتمع كله أضحت عملا عادياً يسيراً لا كلفة فيه ولا معاناة.

ودليلنا على هذا موقفنا من مذهب "كانت" الأخلاقي، وكانت لم يكن فيلسوفاً عادياً أو حتى مفكراً عبقرياً، وانما هو عقلية فذة يعز نظيرها في تاريخ البشر بشهادة الجميع. وإلقاء نظرة على فكرتنا وفكرته

الأخلاقية ويوضح هذا بما لا يدع مجالا للشك بعده. فنحن نختلف في ثلاث معه نقاط رئيسية.

أولاً: هو يرى أن آية الفعل الخلقي أن يكون مطلقاً غير مشروط.. هذا صحيح.. ولكنه يرجعه إلى النزاع الذي يقوم بين الواجب والشهوة أو بين العقل والهوى، وأنا أرى كذلك أن الفعل الخلقي مطلق، ولكنه يستند إلى الجزاء الذاتي لا إلي الصراع الذاتي.

ثانيا: اضطر لتبرير مذهبة أن يقيمه على أسس ميتافيزيقية كخلود النفس ووجود الله لأنه رأى أن العناء الذي يكابده الأخلاقي في هذه الحياة لا يجد ما يكافئه من الجزاء فيها. ولا بد أن ينال جزاءه في الحياة الأخرى، والله العادل يتولى جزاءه هناك.. وأنا وإن كنت أتفق معه على الحياة الأخري إلا أنني أرى أنه إذا سادت القيم الاجتماعية الفاضلة فإن الإنسان يسعده جداً أن يفعل الواجب ويجد في قيامه به الطمأنينة كفاء ما قدم حتى ولو لم تكن هناك حياة أخرى...

إننا لو خلقنا مجتمعاً فاضلا فستكون النتيجة كالآتي:

العمل الخلقي = تقدير المجتمع + مسايرة القانون + احترام الذات + الثواب الأخرون

العمـل غيـر الخلقـي = اسـتهجان المجتمـع + جـزاء القـانون + احتقـار الـذات + العـذاب الأخـرون. أي أن المجتمـع الـذي تسـوده قـيم فاضلة تتعاون المثوبات كلها مع الفرد لحساب الفضيلة.

وكـذلك تتعـاون عليـه العقوبـات كلهـا إن اتجـه ناحيـة الرذيلـة، ومـن هنا ينعدم الصراع لأن الصراع ينشأ نتيجة اهتزاز القيم وغموضها في نفس صاحبها بالنسبة لانحلال المجتمع أما إذا التف المجتمع حول مثل أعلى فلا اهتزاز ولا غموض.

ثالثا: أنه لما بنى أخلاقياته على أساس الواجب المطلق أكد أن الأفعال غير الخلقية يؤدي إليها دائماً حافز غريب عنها بينما الأعمال الخلقية تحمل في ذاتها مبرراتها بصرف النظر عما يترتب عليها من نتائج وآثار...

وأنا أرى أن الأخلاقية تبنى على الحب لا على الواجب، ولذلك فيمكن أن يدخل في العمل الخلقي حافز غريب عنه ليصحح آثاره، ومع ذلك يبقي عملا أخلاقياً، على شرط أن يكون أساسه الغيرية لا الأنانية والحب للغير لا لمصلحة شخصية كما بينت ذلك في فصل الحب عن أهمية الباعث بالنسبة للقيمة والغاية.

* * *

فكانت لم يتطلع مثلنا إلى مجتمع يقوم على الحب ويعمل على إيجاده، ولكنه نظر إلى واقع المجتمع الأناني الذي يعيش فيه وبنى مذهبه الأخلاقي المثالي لحفنة قليلة ممن أوتوا حظاً عالياً من السمو العقلي والخلقي ليمارسوه كرياضة عنيفة وبطولية عالية فيكونون أشبه ببهلونات السيرك أمام المتفرجين.

ونحن نرفض هذه الأخلاقية التي يريدها كانت وأضرابه من العقليين.. نرفضها باسم الأخلاق نفسها لا لشيء آخر، فمعظم هؤلاء يمارسون أخلاقياتهم تفاخراً لا رغبة، وفي المجتمعات المنحلة تجد هذا الطراز من البشر يحدثك عن ترفعه ومثاليته بكثير من الغرور والإعجاب بنفسه ويخيل إليك أنه يدل بهذه الأخلاقية كما يدل الغني بماله والعظيم بمركزه وجاهه، وتحس أنه يتمنى دوام الحال هكذا حتى لا يرتفع إلى مستواه الأخلاقي أحد ليظل له تفوقه وامتيازه.

إننا نطلق على هذا الصنف "أنانيين أخلاقيين" إن صح هذا التعبير، وعلى ذلك فهم لا أخلاقيون فعلا وإن كانوا في ظاهر الأمر في القمة العليا من الأخلاق، ولا قيمة لعملهم هذا ما لم يعملوا علي تعميمه وانتشاره.

وأصدق مثل لهذا موقف بضع مئات من الأسر المحافظة في مدينة كمدينة القاهرة. إنك لتجلس مع الواحد منهم فتراه يقيم الدنيا ويقعدها شكوى من سوء الحال واستهتار النساء والتبرج والانحلال وما

شاكل ذلك. ليقودك بعده إلى حديث عن أسرته واحتشام نسائها وبناتها وأنهن يعشن في القاهرة كما تعيش أترابهن في أعماق الريف فلا خروج إلا بإذن وتحت وصاية وفي أضيق الحدود، ولا اتصال بجيران أو معارف حتى لا يصابوا بالعدوى من هذا الفساد المستشري الذي لا أول له ولا آخر.. وهم بمسلكهم هذا واهمون؛ فالذي يحدث فعلا من وراء ظهور أكثرهم عكس ذلك تماماً لأن هذا الفساد المستشري لن يتركهم في عزلتهم وإن هم تركوه فسيمتد إلى داخل هذه الأسر عن طريق خادمة أو صديقة أو ما شابه ذلك من عشرات الحيل الشيطانية التي يجيدها المفسدون. كما أن نساء مثل هذه الأسر إذا سقطن ولو مرة واحدة فستكون السقطة التي لا قيامة بعدها.

ولقد رأيت بنفسي بعض أوغاد الشبان يتآمرون على مثل هذا الصنف من الفتيات والنساء ويعقدون المباريات والمراهنات للعمل على سقوطهن والفوز بهن. وقد تجد الواحد منهم له علاقة بأكثر من فتاة ولكنه لا يفاخر إلا بعلاقته بهذه بالذات التي يظن الجميع أنه شيء مستعص أو بعيد المنال.

وأمر من ذلك وأدهى لو وقع في يد واحد من هؤلاء أثر لها كرسالة أو صورة ممهورة بإمضائها فسيستذلها بها مدى الحياة، وقد تكون السقطة هذه والفتاة غضة السن في دور المراهقة ثم تكبر وتخطب وتتزوج ومع ذلك يظل على تتبعها وهي لا تستطيع المقاومة لشعورها أن

شرف أسرتها كله معلق بنشر هذه الرسالة أو هذه الصورة فتظل أمة مسخرة له ما لم يرتد إليه ضميره أو ينقذها الله منه عن أي طريق...

ولو خيرت أنا بين الرذيلتين – إن كان في الرذيلة خيار – لقلت إن التي تمارسها هواية ومتاعا خير من التي تمارسها غصباً واضطرارا لأن هذه الأسر المتحررة التي تترك لفتاتها الحبل على الغارب يصادقن كما يردن لا يقدر وضيع أن يستغلهن هذا الاستغلال.

والخلاصة أن الحياة المثلى هي الحياة المتناغمة المتقاربة أخلاقيا، وليست المنقسمة على ذاتها فقلة نادرة بلغت حد الاكتمال البشري وقطيع كامل يعيش على وحشية القبيلة أو ما دونها.

وبذلك تحل مشكلة الاستبداد كما حلت مشكلة الاستغلال تطبيقاً لحديث الرسول: "كما تكونوا يول عليكم" فإذا أتيح للجماعة أن تسمو إلى هذا المستوى فلن تكون هناك فرصة لمستبد أو طاغية لأنه لن يكون هناك وصوليون أو نفعيون يبررون المظالم ويشرعون أقلامهم للتفسيرات الملتوية لكل خطيئة يرتكبها مستبد أو غشوم.

ولذلك فحين قلنا في المقدمة إن العالم يواجه أشد محنة في تاريخه من أثر الفلسفات المادية كنا ندرك النتيجة التي سينتهي إليها لو لم يرفع رأسه عن الأرض ليتجه إلى السماء.

ولا خـلاص للعـالم اليـوم مـن أزمتـه الراهنـة إلا إذا سـادت هـذه القيم.

فعلى من يؤمن بهذه الرسالة واجب الإسراع في تنفيذها مجتمعين لا فرادى ليحققوا لأنفسهم إنسانية كريمة عالية ولينقذوا العالم من الهاوية التي يوشك ان يتردى فيها.

والله الموفق للصواب.

الفهرس

الحياة المثلى .. كيف نحققها ؟

هذا الكتاب :

لم يواجه الإنسان محنة في تاريخه أشد مما يواجهها اليوم ولا يظن البعض أننا نرمي إلى خطر القنبلة الذرية والهيدروجينية وملحقاتهما، ولكننا تقصد ما هو أفدح من أسلحة الدمار والفتك التي باتت تهدده ألا وهي محنة العقيدة، محنة الروح من خطر الفلسفات المادية التي أصبحت تسود وتزحف وتحتل كل يوم موقعاً جديداً.

لقد تجاهلت الفلسفة المادية كل القوى المعنوية، والقيم الإنسانية، وحصرت المشكلة كلها في لقمة العيش أو الجنس، ونسيت أن عمل المعدة وشهوة الجنس تتساوى فيه مع الحيوان تمام المساواة، وأنهما بعض فروع المشكلة الكبرى كما أنهما ليسا أشد عراقة من المشكلات الإنسانية العليا ونفاذاً إلى الصميم.